ليبيا وطني الثاني

(قد تم تحديث هذا الكتاب في **2018**م)





فريد صلاح الهاشمي

Feriduddin AYDIN

feriduddin@gmail.com

دار العِبَر للطباعة والنشر

Al-Ibar Publishing

إسطنبول – **2000**م

كلمة الناشر

هذه لَمَحَاتٌ خاطفةٌ ولقطاتٌ سريعةٌ نابعةٌ من مشاعر كاتب تُركي أقام في ليبيا مدّةً غيرَ قصيرةٍ. ثمّ رجع إلى بلده، وصاغَ بعد صبرٍ طويلٍ هذه العجالةَ بكلماتٍ عميقة الإيحاءِ، ناطقةٍ بلغةِ الضميرِ والوجدان.

يسجّلُ المؤلّفُ هذه الكلمات بواقعية التعبير، وصدق اللسان، وحمية الإيمان، كسيرةٍ مختصرةٍ شبه ذاتيةٍ لمرحلةٍ من حياته الّتي قضاها على أرض ليبيا؛ إذ يدّعي بكلّ تأكيد: أنه لم يسبق لكاتب تركي قبله أن صوّغَ شيئًا من سيرته الذاتيةِ باللّغة العربية، وخطّها بيمينه منذ تعرّف الأتراك على الحروف العربية إلى هذه اللحظة (سوى عدد قليل جدًّا ممن وُلد منهم ونشأ في البلاد العربية واستعرب تمامًا بشكل طبيعي)؛ يستشهد المؤلّفُ بهذه الحقيقةَ على اقتحامه مواقع الخطر غير عابئٍ بكلِّ ما اعترض سبيلَهُ حتى أتقن هذه اللّغة، مع أنَّ ممارسةَ اللغةِ العربية أيامَ طفولته كانت تُعدُّ من أكبر الجنايات في بلاده! (راجع قانون العقوبات التركي رقم1353/1928م.)

لا يفوتنا أنْ نُصَرِّحَ هنا بالمناسبة بأنّ الأستاذ الباحث فريد الدين كان ضالةً منشودةً حين تعرّفنا عليه وتتلمذنا على يده مدةً قصيرةً؛ فما لبث حتّى علِمنا حقَّ اليقين، أنه لم يكن مِنْ باحثٍ عربيٍّ تمكَّنَ من الإطّلاعِ على تاريخ الأمة التّركية، والحياة الاجتماعية لهذا الشعب، ودقائق العلاقات التّركية–العربية بقدر ما درسها كاتبُ هذه العجالة واستوعبها وتعمّق فيها وصاغها في عديد من مقالاته وكتبه!

في الحقيقة، كلّ من يطلع على مؤلّفاته، يتّضح له أن مشاهير رجال البحث في العلاقات التّركية–العربية من متأخري العرب، ابتداءً من عبد الرحمن الكواكبي إلى جميل بيهم، وأنيس المقدسي، ومحمد الخير، ومحمد حرب، وعقيل محمد عقيل البربار، وإلى ناصر نشاشيبي وبطرس أبو منه وغيرهم، لا تمثّل معرفةُ هؤلاءِ شيئًا هامًّا بجانب ما للمؤلّف من

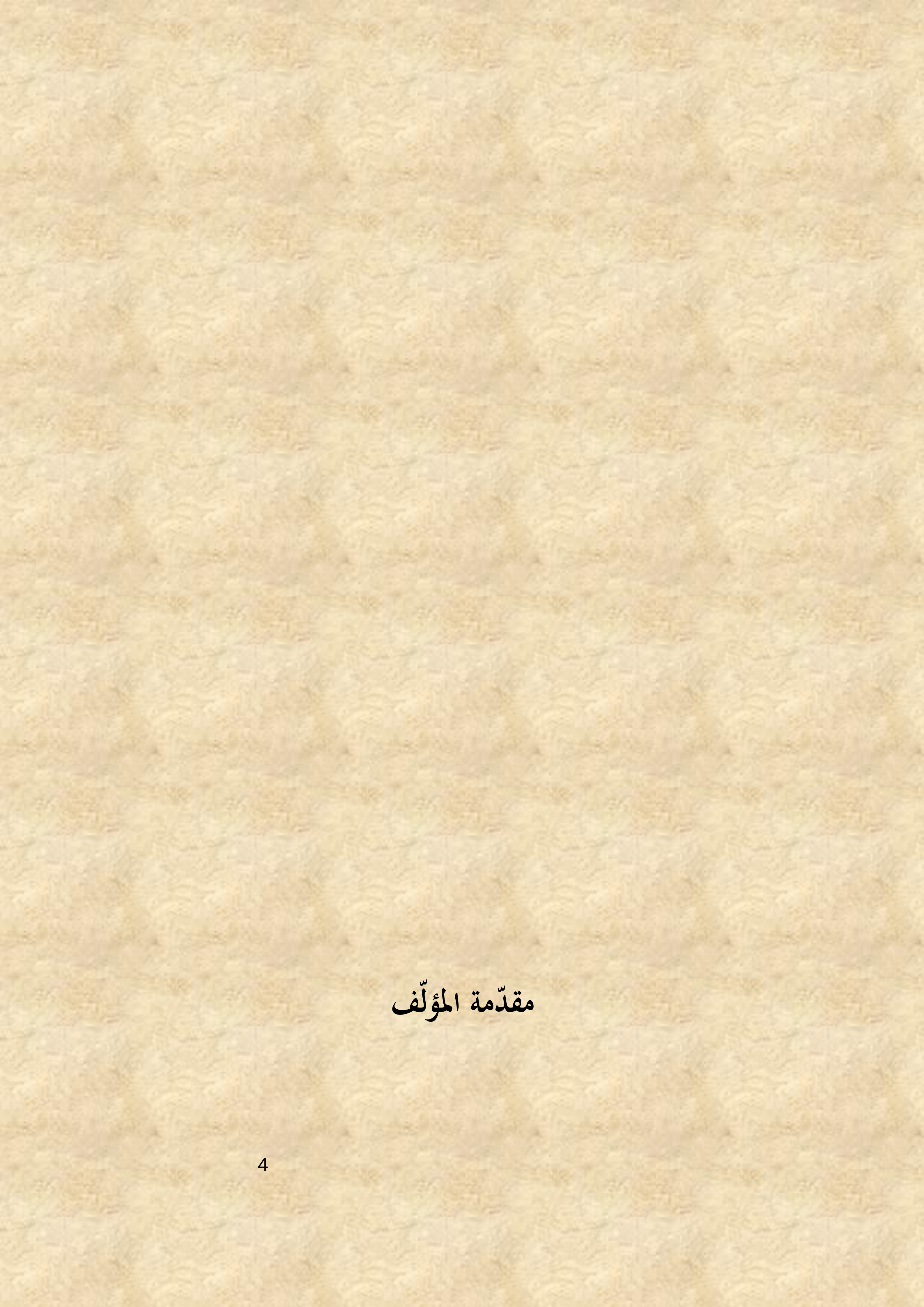
خلفيات مازالت معظمها غير مدونة. فإنّ كلَّ كلمةٍ قد سجّلها في هذه العُجالةِ أو في غيرها من بقية أعماله، لهي جديرةٌ بدراسةٍ عميقة، لحاجة عالم المعرفة إلى معلوماته. كما يترتّب على عاتق المسؤولين بقطاع البحوث العلمية في البلاد العربية الاهتمام بخبرة هذا الكاتب خاصّةً في المسائل الاجتماعية، والعقائد المنتشرة بين عناصر المجتمع التركي. وينبغي الاستفادة من عمق معلوماته حولَ الاتجاهات المتنازعة الّتي تتفاقم على الساحة التّركية بين الفينة والأخرى.. إن هذه الميّزة الّتي يتّصف بها المؤلّف فريد الدين هي لا شكّ من نتائج معرفته الواسعةِ باللغتين العربية والتّركية على السواء، وحظه الوافر من ثقافتهما؛ مما فتح أمامه المجالَ في البحث والدراسة حول العلاقات العربية– التّركية. فكشف الغموضَ عن قضايا كثيرة توارت في ضباب هذه العلاقات عبر التاريخ، وظل الباحث العربيّ شارد الفكر عن حقيقتها. ولهذا يتأكد الاهتمام بنشر أعماله الجاهزة ودراسة مشروعاته العلمية والثقافية قبل أن تتعرّض لعسف السلطة المحلية فتذهبَ هدرًا وتندرج أخيرًا في قائمة الخسارات العلمية على حساب الثروة الثقافية للأمة العربية في تركيا.

لقد غفل العربُ عن كثير من بقايا تراثهم وثرواتهم العلمية بعد أن آلت إلى غيرهم عبر حقبات التدهور والانحطاط، كما غفلوا عن جموعٍ وعناصرَ عربيةٍ مفصولةٍ من بني جلدتهم منذ قرونٍ بعيدةٍ، كأسرة مؤلّف هذا الكتاب. فإنّ وضعَ هؤلاءِ يختلف بكثيرٍ من وضع العرب الّذين عُرِفوا بجيل المهجر. ولا نبالغ إذا قلنا أن هؤلاء تجرّعوا مرارة الغربة والقهر والاضطهاد عبر القرون من أشدّها وبدون هوادةٍ إلى يومنا هذا.

فإذاً يجب إمداد هذا القلم النادر من نوعه، والّذي استطاع أن يحافظ على كيانه وقِيَمِهِ وانتمائه إلى أمّته، فحقق المستحيل: إنّه تبحّر في لغة الضّاد في بلدٍ يُطلَقُ عليها « لغة الشعوذة» ، دافع عن هويته واعتز بالحق ودأب طريقة العلماء دائماً، فتمسّك في بحوثه بالمعطيات العلمية. لذا جاءت آراؤه صادعةً صريحةً، وإن كانت لهجتُهُ قاسيةً. أبى إلاّ أنْ يبقى عفيفَ النفسِ في مواجهة الفقر المرير وتكبّد فوق ذلك آلام القهر والاضطّهاد حتى متّعه الله بسعادة الإقامة في بلدٍ عربيٍّ كما يشرح في هذه العجالة الّتي حرّرها بحرارة إيمانه ليقدّمها إلى الشعب العربي الليبيّ الكريم عرفاناً بالجميل.

أعود فأقول مرة أخرى: يجب إخراج هذا القلم المدرار أوّلاً من ظُلُمات المجاهيل والإهمال، وإنقاذ ثمراته بأقصى سرعةٍ. وأقلّ ما ينبغي أن نعترف به في هذا الصدد: أننا قد عثرنا على شيءٍ يخصّنا وهو في قبضة غيرنا، فعلينا أن نستردّه مهما كانت قيمته.

الناشر



مقدّمة المؤلّف

حكم القضاءُ الإلهيُّ أنْ فُجئتُ بدعوةٍ من إحدى الشركات التّركية للمقاولات، تطلبني أن أتولّى علاقاتها الخارجية؛ فلم يلبث حتى أبديتُ عن موافقتي. ووجدتُ نفسي مودّعًا وطني تركيا وأهلي بإسطنبول مسافرًا إلى طرابلس يوم الثاني من شهر أبريل عام 1976م. وأنا يومئذ في مرحلة الاستواء من شبابي.

وإنما اختارتني هذه الشركةُ لأنّي كنتُ قد حظيتُ قسطًا بالغًا من العلم باللّغة العربية وقواعدها ودقائق آدابِها حتى أصبحتُ من أفراد رهطٍ يتوافد عليهم رجال هذا الاختصاص في بلادنا من الأزهريين وغيرهم. وفي الحقيقة أكسبتني هذه الميزةُ يومئذٍ حظًّا لم أنلها قبل ذلك ولا بعده، (كما سوف أتطرق إليه بالمناسبة في حدوده.). فتسابقتْ عدّة شركاتٍ في إقناعي للعمل معها بمرتّباتٍ مغريةٍ حتى تعاقدتُ مع شركة ليبكو(**Libko**) بعد إصرارٍ بالغٍ من صاحبها إبراهيم جواهر، وذلك بواسطة صديق لي كان أستاذًا بجامعة إسطنبول. فلم يسعني حتى استجبتُ له بشروطٍ أهمُّها أن تحتاط إدارة الشركة في معاملتي بأن لا تجعلني في مستوى المترجمين مع احترامي لهم، لأنّ الدور الّذي سأقوم به يختلف عن دورهم بكثير!

فكان من أمل أصحاب الشركة بهذه الدعوة أن أتولّى دورًا فعّالاً في الاجتماعات وأثناء المقابلات مع كبار المسئولين للجهات العامّةِ بليبيا «لعلّي أنفذ إلى قريرة نفوسهم، وأجتذب عطفَهم بسحر الكلمات!» ليشقَّ هؤلاء أصحابُ الشركة طريقهم بسهولةٍ إلى تحقيق أهدافهم الّتي كان من أهمّها قبض مستحقاتهم وتنفيذ المشاريع الّتي تعاقدوا عليها في الوقت المحدّد.

إنّ قصّةَ أيّامي الّتي قضيتُها على أرض ليبيا بين شَدٍّ وَحَلٍّ، هكذا بدأتْ وأشغلتْ من حياتي أحد عشر عامًا.

كانت الظروف السياسيةُ والاقتصاديةُ يومئذٍ تختلف عن الظروف الّتي نعيش فيها اليوم بكثير، إذ لم يكن مثلا الحاسوب ولا الشبكة العنكبوتية ولا الأجهزة الألكترونية متوفرة في متناول الناس يومئذ، كما كانت العلاقات التّركية–الليبية رمزيةً منذ عشرات السنين؛ ابتداءً من انهيار الدولة العثمانية وقيام هاتين الدولتين على أنقاضها. سوى أنّ حدثًا كان قد أشغل الرّأيَ العامَّ التركيَّ حولَ ليبيا منذ عام 1972م. وذلك شاع «أنه ندّد العقيد معمر القذافي بالأعمال الوحشية الّتي قام بها القبارصة اليونان ضدّ القبارصة الأتراك، وأدلى في تصريح له بمساندته لتركيا في وجه العدوان اليوناني» . فبعث هذا الخبر انشراحًا في صدور الناس من الطبقة الثانية للشعب التركيِّ، وهي الأكثريةُ التابعةُ للطبقة الحاكمة. ولكنّه من الغريب أنْ استطاعتْ تلك الجموع الغفيرةُ لترفع صوتها بالتّعبير عن

ابتهاجها يومئذٍ لهذا الخبر على الرغم من صمت الطغمة الحاكمة وسوء موقفها من كلّ مبادرةٍ عربيةٍ حتى إذا كانت لصالح تركيا والأتراك.

كان لهذا الخبر طنين في الآذان، وتأثير بالغ في القلوب حتى عقبتها دعوةٌ من ليبيا إلى تركيا، تطلب منها الأيدي العاملة لتستخدمها في حملةٍ عمرانيةٍ اعتزمتْ الخوض فيها. ففتحتْ ليبيا أبوابَها للشّركات التّركية من بداية السبعينات في الحين الّذي كانت تركيا قابعةً على نفسها، ولم يكن لمعظم هذه الشّركات وجود قبل ذلك؛ فانتعش الاقتصاد التركي في الثمانينات بشكلٍ ملحوظ نتيجة هذه المفاجأة، وسرعان ما تحوّلت تلك الشّركات الخيالية إلى مؤسّسات عالمية عملاقة بفضل ما نالت من دخلٍ وافرٍ تدفّق عليها من الخزانة الليبية. فكان من نتائجها أن تعاقدتْ هذه الشّركات مع دولٍ عديدةٍ في أوروبا والشرق الأوسط، بعد محصّلاتٍ من التّجارب وكسبِ مهاراتٍ على حساب الشعب الليبيّ وإلحاق أضرارٍ جسيمة بمصالحه على مدى خمسة وثلاثين عاماً (1975–2011)، ثم تجاهلت الحكوماتُ التّركية كلّ هذه الحقائق بدل أن تعتذر إلى ليبيا عرفاناً بالجميل، فزادت غلظةً وسلبيةً في علاقاتها بالرّغم من هذا التطوّر الّذي أكسب تركيا ثروةً وانفتاحاً ومركزاً في المنطقة، وارتياحاً في الداخل لأنها تمكّنت بذلك من تسوية قسطٍ كبيرٍ من ديونها الّتي أثقلت كاهلها منذ سنين، كما استطاعت بفضل هذا الارتياح أن تُخْمِدَ ثورة التنظيمات السرية وتغذي مشاريع التنمية في أنحاء البلاد.

***

لابد أن يتعجّب القارئُ هنا لهذه الصراحةِ ويتحسّس مع ذلك ما تُنبئُ العباراتُ السالفةُ من حقائق يكاد يتلمّسها؛ وسوف يتلقّاها فيما يلي. كما لابد أن أذكر هنا أولاً كيف أصبحتُ من أبناءِ ليبيا وقد وُلدتُ ونشأتُ في تركيا؛ ولماذا أشتاقُ وطني الثاني وأنا اليوم في وطني الأصلي، مسقط رأسي، ومدفن عشرين جيلا من آبائي! ولماذا أزدادُ حنينًا إلى ليبيا كلّ يومٍ مع أني لم أغادرها ممتلئ الجيوب بالصكوك السياحية، كغالب الأتراك الّذين ربما لم يعمل أحدهم فيها ربع ما عملتُ، ولم يُخلص لها أكثرهم بالقدر الّذي أخلصتُ لها رعايةً لمصالحها ومصالح أبناءها؛ ولا ادّخرتُ من أجورٍ تقاضيتُها بعرق الجبين على أرضها أكثر من مبلغٍ متواضع جدّاً على مدي أحد عشر عاماً، أخجل من ذكره في هذه السطور.

إن الإجابة على الأسئلة آنفة الذكر وما يرتبط بها من أسئلة أخرى إنما تكمن في الكشف عن حقيقةٍ أساسيةٍ قرّبتني إلى هذا البلد وإلى أبناءه، وملأتْ قلبي بأحاسيس لم تكن قد سربتْ أبدًا إلى قلب أحدٍ آخر من الجالية التّركية.

تلك الأحاسيس قد ورثتُها أيام الصبا، لا يعرف أحد من أبناء العروبة ما هي هذه الأحاسيس؛ وليس من السهل أن يتعرّفوا عليها؛ لأنه لم يتعرّض أحدهم لمطاردة قوات الدرك بسبب « أنهم يتعلّمون اللّغة العربية» !

أما تلك الحقيقة: فهي أبي في الواقع رجلٌ عربيُّ الأصلِ، تركيُّ النّشأةِ، مستعربٌ. بدأتُ أتعلّم اللّغة العربيةَ والقرآنَ وأنا طفلٌ لا يتجاوز عمري عن ست سنوات. إنما تعرّفتُ على لغةِ آبائي بعد هذه المدة من العمر، لأني بدأتُ أدرس هذه اللّغة وأنا مع أسرتي نقيم في منطقةٍ لا يتكلّم أحدٌ من أهلها إلاّ باللّغة الكردية، وتُسيطِرُ عليها حكومةٌ لغتُها التّركية!

هذه المنطقة، قد كتبتُ عنها مقالةً تحت عنوان (الجامعة الزهراء)، ونُشِرتْ في مجلة كلية الدعوة الإسلامية/العدد الخامس لعام 1988م.

وإذا عدنا برهةً إلى أهمّ الذكريات لأيام طفولتي، فانّ أمي كانت كلما تودّعني إلى الكتّاب، تنبّهني بتأكيد: أن أكون على حيطةٍ، وأن لا أذكر لأحدٍ من غير سكان القرية أنّي أتعلّم اللّغة العربية! ذلك مخافةَ أن لا تفاجئ الأسرة مداهمة جنود قوات الدّرَك. لأن دراسة اللّغة العربية كانت ممنوعةً في تركيا حتى 20/مارس/1992م. ثم أَفْرَجَ عنها رئيس الوزراء الأسبق ترغوت أوزال؛ ولكن ما لبث حتى عاد الحصار متضاعفًا ومصحوبًا بغطرسةٍ وظلمٍ وعنجهيةٍ. إذ أعلنت الحكومةُ التّركية في نهاية عهد أوزال أنّ شهادات التخرّج الّتي حصل عليها الطلاب الأتراك في البلاد العربية، كلّها ملغاةٌ لا قيمةَ لها. وفي هذا كفايةٌ لمن يعتبر بخطورة الموقف ومدى شدّةِ النّكبةِ الّتي أصابتْ الّذين لم يتعدّ ذنبُهُمْ عن كونهم يحملون وثيقةً تشهد على أنّهم أهانوا بكرامة اللّغة التّركية فتعلّموا اللّغة العربية في بلدٍ عربيّ! فما بال القارئِ بذنب الّذين « اقتحموا كرامةَ الساحةِ التّركية فتعلّموها على أرضِ هذا البلد» ، وأنا في عدادهم؟!! كما تعتزم الحكومة في هذه الأيام (1992) لطرد جميع الموظفين بمرافق الدولة الّذين درسوا وتخرّجوا في البلاد العربية؛ وكما ضربت صفحًا عن القانون الّذي أصدره ترغوت أوزال برفع الحصار عن اللّغة العربية. فقد بدأت الحكومةُ تهدّد المدارسَ الخاصّةَ بعقوباتٍ صارمةٍ إذا عُثِر فيها على أثرٍ من نشاطات التدريس باللّغة العربية!

هذه التطوّرات تذكّرني مرة أخرى بأيام طفولتي، بتلك الأيام الّتي كان قلبي يصبو إلى العرب؛ وكنتُ أتمنّى لو رأيتُهم وتحدّثتُ معهم. لأننا كنّا الأسرة العربية الوحيدة في المنطقة.

لقد كنتُ في حيرة من أمر والدي أنه كيف تعلّم اللّغة العربية، ولا أعلم يومئذٍ أنها لغتُهُ الأصليةُ. إذ كان يُتْقِنُها، ويتكلّمُها بطلاقةٍ في حواره مع علماء الأكراد، فيُعجبني أسلوبُهُ، ويدرّسُها سرًّا، على الرغم من الاحتياطات الشديدة الّتي كانت الحكومة تتخذها، والعقوبات الّتي تنفّذها ضدّ من يُلقى القبض عليه «وهو يرتكب هذه الجناية!»

ثم ما لبثتُ حتى علمتُ أنّ أسرتي تنحدر من سلالةٍ عربيةٍ هاجرت من المدينة المنوّرة وطنِها الأصليّ إلى الكوفة بعد ثلاثين عامًا من الهجرة النبوية صلّى الله عليه وسلم. ثم أقامت في بغداد قرونًا حتى دخلها جيوش التاتار ودمّروها وقتلوا أكثر أهلِها عام 1258م. فهاجر آبائي منها إلى وطنهم الثالث (مدينةِ أسْعِرد Siirt) في عهد ملوك الطوائف. وهي في أقصى جنوب تركيا على مسافة مائة وخمسين كيلاً من الحدود التّركية–العراقية. فأصبحوا من أهل ديار التُّرك منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا. قاومتْ الأسرةُ الموانع وأبت أن تذوب في بوتقة الجموع الآهلة بالمنطقة عبر القرون. فاحتفظت بكيانها في وسط تلك العناصر الخليطة إلى الماضي القريب؛ ولكن الضغوط السياسية والدوافع الاجتماعية أنهكتها أخيرًا، فإنّها لم تعد قادرة على الاحتفاظ بميّزاتها العربية في الوقت الراهن. فأولادنا ما عادوا يتكلّمون باللّغة العربية إلاّ من يزيد أعمارهم عن ثلاثين سنة تقريبًا، ولا يتقن الكتابة والقراءة مِنْ أفراد هذه الأسرة الكبيرة إلاّ عدد قليل.

انتقلت عائلات من فروع هذه الأسرة إلى إسطنبول بعد الستينات من القرن المنصرم، هربًا من مساوي الفتنة الّتي بدأتْ تتوقّدُ نيرانُها بين الثوّار الأكراد والقوات المسلّحة التّركية.

هذه أسرتي، وكان هذا موجزًا من تاريخها الّذي استوحيتُ منه وعيي وصحوتي، وشققتُ الطريقَ على ضوئه في تباحُثٍ لأكون يومًا من أفراد مجتمعٍ لا يراني أحد منهم حقيرًا لأني عربيٌّ! عشتُ بهذا الحلم حتى زرتُ ليبيا وأقمتُ بين أبنائها، وعلقتْ نفسي بها، فأصبحتْ هي وطني الثاني لا ثالث بعدها.

لما بدأ الأتراك يتوافدون إلى ليبيا من أواخر عام 1974م. أخذتُ أتسلّى وأستبشر خيرًا، وأقول في نفسي: إنّ البُغض الّذي أثارتْه الحكوماتُ التّركية ضد العرب ولغتِهم في أوساط المجتمع منذ إشراف الدولة العثمانية على الانهيار، ربما كان من نتائج سياسةٍ عابرةٍ مرتبطةٍ بأسباب زمنيةٍ انتهت بانتهاء المرحلة. وعسى أن يكون في هذا التقارب خير يجني من ثماره الطرفان التركي والعربي، وتتطوّر العلاقات الودّية والتعاون بينهما. لأنّ العرب والتُّرك جزآن هامّان من الأمة الإسلامية.

ولكنّ الواقع فيما بعد برهن عن خلاف ما كنتُ أتوقّعُهُ أثر تدفّق الأتراك إلى البلاد العربية وعلى رأسها ليبيا.

وأشد ما جعلني أصطدم بخيبة الأمل، خبرٌ قرع سمعي في تلك الأيام الّتي كنتُ مبتهجًا بتحسّن العلاقات التّركية–العربية، وأنا على أرض ليبيا، بلغني هذا الخبر عن طريق من لم يُعرَفْ بالكذب من لسان أحد المسئولين بجهاز التخطيط التابع لديوان رئيس الوزراء: «أنّه دعا رئيس الوزراء (يومئذٍ) جميعَ المقاولين الأتراك المتعاقدين في البلاد العربية على تنفيذ أعمال؛ جمعهم، وأخذ منهم العهدَ والمواثيق المؤكّدةَ بأن يمنعوا العاملين الأتراك منعاً باتّاً من مخالطة العرب ومعاشرتهم، ومن الزواج من بناتهم خاصّةً، حتى لا تعود تنفتح ثغرات على الحاجز الّذي طالما تدفع تركيا بفضله تأثير الثقافة العربية–الإسلامية. وشدّد عليهم أن يقاوموا بكلِّ قُواهم التّيارات الإسلامية من التسرُّب إلى المجتمع التُّركيّ، أُسوةً بالأسلاف الّذين لم يدّخروا جهدًا في التضحية لأجل القضاء على الوحش المفترس المتمثل في الدين منذ إعلان الجمهورية!» . كان هذا نص كلامه بالضبط.

في الحقيقة لم أستغرب الخبر في البداية ولكن صدمتني وطأتُهُ فيما بعد فلم أملك نفسي من استنكار هذا الموقف حتى نقله الواشون وطلبتني السفارةُ واشتد الحرج إلى أن فُرِج. مع كل ذلك لم يخالطني ذعر وما انتابني خوفٌ أبدًا. لأنّي تصوّرتُ دائمًا وأنا على أرض ليبيا أنّها وطني، وملجئي، ومُعْتَصَمي. ليبيا كانت ولا تزال وطني الثاني مهما دخلتُها بعد الحصول على التأشيرة في كل زيارة كالأجانب. فإنّي لستُ أجنبيًّا بالنسبة إلى ليبيا على الرغم من القوانين والإجراءات الّتي تتغير بين الفينة والأخرى. أمّا انتمائي إلى ليبيا وإلى الشعب العربيّ الليبي، فانه لن يتغيّر إلى الأبد.

فريد الدين آيدن

عشتُ سعيدًا في ليبيا

إن مجرّد كلمة الغربة من وجه عامٍّ، تعني الحسرة والجزع والقلق والشوق إلى الأهل والبلد الّذي غادره الغريب لسببٍ أجبره على ذلك بعد أن نشأ وتربّى وترعرع بين أحضانه وقضى على أرضه أيامًا زاهرةً ثم استودع فيه عياله وأصدقاءه؛ وترك فيه خباياه من ذكرياتٍ وأسرار، وما تغلو في عينه من مالٍ وآمال.

في الواقع لم يكن هناك فرقٌ كبيرٌ بيني وبين أيّ غريبٍ آخر من هذه الجهةِ كلّما غِبْتُ عن وطني وأهلي. إلاّ أنّ ضميري وإيماني يستوجبان هنا أن أقرّ بحقيقةٍ، وهي: أنّي على الرغم من المحبّة الّتي تربطني بوطني ربطًا وثيقًا – باعتبار أنه مدفن عشرين جيلا من آبائي– أحسستُ دائمًا بمثل هذه المحبّةِ لأرض ليبيا وأهلِها. ولن أنسيَ تلك اللحظةَ الّتي كانت سُحبٌ من الفرح تتصاعد من أعماق قلبي إلى قمة رأسي، وتهبُّ نسماتُ السرورِ داخلَ صدري وأنا أطأُ للمرّةِ الأولى أرضَ ليبيا المباركة في مطار طرابلس يوم الثاني من شهر أبريل عام **1976**م. فأحاطتْ بي الطمأنينةُ من كلّ صوبٍ مدّةَ إقامتي فيها.

كانت طرابلس يومئذٍ مدينةً هادئةً، لا يتدافع فيها الناسُ، ولا يتحرّش بك النصّابون الّذين يتربّصون بالغرباء والمسافرين، (كما هي الحالة في أماكن مزدحمة بمدن تركيا الرئيسة)، ولا يلتف السّاقُ بالساقِ هناك، حتى في كبريات شوارعها (شارعِ الإستقلال، وشارعِ عمر المختار). ولا يخاف المسافر والغريب في مدن ليبيا من لصٍّ يختطف من جيبه محفظتَهُ، بينما هو من الأحداث العادية في إسطنبول، يتكرر يوميًّا وبصورةٍ مستمرّة. لكنه ويا للأسف الشديد نسمع في هذه الأيام أن الوضع قد تغيّر تمامًا في طرابلس العاصمة الليبية بعد ثورة 17 فبراير؛ قد أصبح المواطن الليبي خائفًا على نفسِهِ ومالِهِ بسبب الإنفلات الأمني هناك.

عشتُ سعيدًا في ليبيا على الرغم من المهام الّتي أثقلت كاهلي مع تنوّعها. فكنتُ أراقبُ أعمالَ المترجمين بمرافق الشركة من جهة، وأراجع الكشوفات بقسم المحاسبة من جهة أخرى، وأركض من وراء إجراءات الشركة لدى المحاكم والمصارف ومؤسسات الضمان والمنشآت وسائر الجهات العامة؛ مع كلّ ذلك أحضُرُ الاجتماعات الّتي يشترك فيها المسؤولون الليبيون مع أعضاء مجلس إدارة الشركة، وأدخُلُ في مناقشاتهم الحادّة؛ كلٌّ يدافع عن فكره وعن مصلحة الطرف الّذي يمثّلُهُ. وقد يشتدّ النّقاشُ ويزداد التوتّر بين الطرفين أحيانًا إلى حدود المشاتمة والعراك، فيجعلني في موقف شديد الحرج. وقد تتضاعف المشكلة وتبدو أمارات العنف، فيوشك أن ينهال عليَّ الطرفان دون أن يكون لي من وراء الأمر مصلحةٌ!

مع كلّ هذا الوضع الخانق والمشحون بالقسوة، وأنا أركض في سيل من العرق على امتداد الأيام لم تهجرني السعادةُ ولم تذهب طراوةُ ريحانِها من قلبي. بل ظلّ التفاؤل يغمرني ما دمتُ على أرض ليبيا؛ وكلما وجدتُ نفسي مع شخص ليبي يكلّمني من صميم فؤاده، بصفاء ضميره، وطلاقة وجهه، وسذاجة لهجته الخاليةِ من جميع ضروب الحيلة ذهبتْ عني الهموم. ولكنّي أعترف ويا للأسف بأنّي قليل الحظِّ من صحبة أبناء هذا الشعب الخالص النّقيِّ الّذي لم تُفْسِدْهُ ما افسد شعوبَ العالمِ اليومَ من الرذائل والغوائل. نعم أعترفُ بأنّ حظّي لم يكن وافرًا من مخالطةِ أبناءِ هذا المجتمعِ النقي؛ فلم أتمكّن من تبادل الحديث معهم بلغة الضمير والوجدان، وما لقيتُ أحدَهم إلاّ التمستُ منه المساعدةَ لتسهيل أعمال الشركةِ ليس إلاَّ...

حقًّا، عشتُ سعيدًا في ليبيا، لم أتعرّض هناك لأدنى إهانة طوال أحد عشر عامًا. بل لقيتُ من جلِّهم حفاوةً وكرمًا واحترامًا؛ فشعرتُ بارتياح في نفسي دائمًا وأنا بينهم. وأيقنتُ بأني في بلدٍ آمنٍ لا يمسّني فيه سوء. لذا، كلما عُدْتُ من إسطنبول وحلّقتْ الطائرةُ على أجواءِ ليبيا دعوتُ بنص الآية الكريمة "رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ..." (البقرة/136)

نعم عشتُ سعيدًا في ليبيا لأني نلتُ حظًّا وافرًا من الثقافة العربية على هذه الأرضِ بمجرّد التّفاعُلِ مع أبنائِها والاحتكاك بهم. نعم، لا مريةَ ولاغروَ أني كنتُ من أفراد نُخبةٍ ممن طال باعُهم في علوم العربية وتبحّروا في قواعدِها وآدابِها حتى أشار إليهم الناسُ بالبنان في محافل العلم. أقولُ هذا تعبيرًا عن الحقِ وتحديثًا بالنعمة، وليس دعايةً أو مكرًا أو فكاهةً. "وَأمّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ" (الضحى/11) ولكني أعترفُ بما كان ينقصني من ثقافةٍ ومعرفةٍ لجانبٍ آخر من هذه اللّغة قبل إقامتي في ليبيا؛ إذ لم يحالفني الحظُّ لكسب هذا الجانب المتخفّي وأنا أُقيمُ في مجتمعٍ أبناؤُهُ لا يعبؤن بهذه اللّغة ولا يفهمونها، بل يشمئز منها قلوبُ الّذين لا يؤمنون بالآخرةِ، فضلاً عن أنّها مرفوضةٌ وممنوعةٌ من التدريس، إلاّ في عدد قليل من مدارسَ رمزيةٍ تتعرّضُ لمراقبةٍ شديدةٍ من قِبَلِ عيون السلطة التّركية؛ ولا يغفل عن أدنى حركةٍ فيها جواسيس العلمانيةِ، وعبدة الأوثان، وأعداء الإسلام...

صحيح أنّي لم أظفر بمخالطة علماءِ ليبيا ومثقّفيها وأُدبائِها وشعرائِها بسبب الأعمال والمسؤلية الّتي أشغلتني يومئذٍ ومنعتني من اغتنام أغلى فرصةٍ سنحتْ لي في تلك المرحلةِ الزمنية؛ لأني أفنيتُ عمرًا من ذي قبل في دراسة لغة قومٍ لأُشارِكَهم يومًا في حوارٍ يجدي بثمراتِهِ الطيبة: يربط ما انفصم من عُرى الأُخُوَّةِ التّركية–العربية، ويُصلح ما فسد من الأفكارِ والعلاقات، ويبني ما هدمته الأيدي الشريرةُ من جسورٍ كانتْ تربطُ بين القاعدة الشعبية من الطرفين زمنًا.

هل يجوز أنْ يكون هذا أمنيةَ رجلٍ يعملُ كموظّف متواضع في إحدى شركات المقاولةِ، وليس له غير ذلك من منصبٍ ولا حولٍ ولا قوّةٍ ولا صفةٍ تُحمّلُهُ الدّورَ للقيامِ بهذه المهمة الخطيرة الّتي لا تقوم بأعبائِها إلاّ الزعماءُ والسياسيّون والرّوّاد والمصلحون والمرشدون؟؟!!..

هذا السؤال الافتراضي، إنما تتهامسُهُ نفوسٌ مريضةٌ لا يستحق إلاّ أن نتركها في سلّة القمامة على حالها فنعود إلى ما نحن فيه مع أبناء الشعب الليبي الّذين حققوا المستحيلَ: أيقظوا البشريةَ من نومتِها الّتي غرقتْ فيها عبر آلافٍ من السنين، وأعادوا للإنسان كرامتَهُ؛ فكشفوا عن كلّ التناقضات الّتي يتقلّب فيها الإنسان المعاصر التعيس ويتمرّغُ في أوحالِهِ. بل فضح هذه التناقضات وكشف عن مساويها رجل شبه مجنون ظهر بينهم، إلاَّ أن هذا الرجل كان في الوقت ذاته وبالا في أعناقهم يتخبط في عشواء ويسوم شعبه سوء العذاب بطبيعته العدوانية وأطواره الغريبة، فقتلوه.

نعم، عشتُ في وسط هذا هذا الشعب الطاهر سعيدًا في ليبيا، وتلقّيتُ دروسًا قيّمةً حتى في شوارعها، ومن العبارات الّتي كنت أبصرها فوق الأقواس واللافتات والجدران والاستمارات من آيات قرآنية ومقولات مقتبسة من منابع الحكمة. تنادي كلُّها بتطهير الدين من التّزمّت والشعوذة والتّطرُّفِ والزّندقةِ... كلها إيجابياتٌ وإصلاحاتٌ رائدةٌ وتوجيهاتٌ قيمةٌ مستوحاةٌ من كتاب الله العزيز، وسنة رسوله صلّى الله عليه وسلم، تضيءُ طريقَ الإنسانِ، وتنفث في روعه روحَ العزيمة والصحوة والتّأهُّبِ في وجه كلِّ أملٍ آثمٍ، ليدافع عن الحق، وليضحّيَ في سبيله، وليفوز بشرف الدنيا وكرامة الآخرة.

***

تركتني ليبيا بين إعجابٍ وحيرةٍ

أينما يممتُ وجهي في ليبيا وأنا مشاهد بانتباه بالغ، أحسستُ دائمًا باستغراب يخالطه إعجاب وحيرة في الوقت نفسه. أما في الواقع، لم يكن هناك ما يهيّج حرصَ أرباب اللهو والمغامرة، ويثير غريزةَ عبدة البطون والشهوة من صور الحياة الطائشة.

لا أكتم أنّ هذا الانطباعَ، إنما ينبع من عين المحبة، ولكنه بنظرٍ لا تغلبُ فيه العاطفةُ على العقلِ. إنّ عين المحبة والإخلاص لا تُغادِرُ سلبيةً إلاّ تمعّنَتْ فيها، وتمنّتْ استبدالَها بإيجابيةٍ، ولكنّها أحيانًا تتمنّى لو كان كلُ الأمور صالحةً ميسّرةً لتعُمّ الخيرُ بذلك ويسود على العالم كلّه.

هذا مستحيل طبعًا. فمن سنة الله، أن يتخلّل الفتور مسارَ الأمور، فيقطعَ من سياقِها، ويُذهِبَ من تسلسُلِها ونسقها قسطًا حتى يتعرّف الإنسانُ بذلك على الشيءِ عن طريق التّعرُّف على نقيضه كما قيل: « كلّ شيءٍ يُعْرَفُ بضدّه»

بهذا الدليل أهتدي أن أقول: إنه لا يُستَبْعد أن يعتزم مجتمع. نهض منذ قليل من الزمن من رقاده، أن ينهض من جديد ليتدارك ما قد فاتته مِنْ فُرَصٍ فيستبدل ما تبقّىَ من سلبياته بإيجابيات كما فعله الجيل الأول من مصلحي كلّ أمّةٍ.

في الحقيقة انتصر الليبيون في كثير من معارك الحياة. انتصروا أوّلاً في كفاحهم المسلّح علي المستعمرين بوجه عامٍ؛ ولكن بهدوءٍ، ورقابةٍ، وصبرٍ، وتمهّلٍ مع الزّمان؛ حتى نصرهم الله على قلةِ عددهم، وسوء ظروفهم؛ وأبلى أعداءَهم بالهزيمة. والانسحاب، على الرغم من كثرة عددهم، وقوّتهم، وشوكتهم، وأسلحتهم المطوّرة، وفنونهم الحربية المتنوّعة. «وَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ، وَاللهُ مَعَ الصّابِرِين» (البقرة/249)

ربما يزعم بعض القاصرين عن فهم الحقيقة: بأنّهم إنّما وصلوا بقوة المال إلى ما قد وصلوا؛ وإنّما حققوا الإنجازات الأخيرةَ بقوة الذهب الأسود الّذي يتدفّق من قلب أرضهم! هذا الزعم الطائش، لو استفاق صاحبُهُ من غفلته وتدبّرَ لحظةً صَبْرَ الليبيين عبر أيام الحصار الّذي فُرِضَ عليهم ظلمًا وعدوانًا، وأخذ من حياتهم سنين عددًا وهم يقاومون العالمَ بأسره، ثم انقضاضهم على مارقٍ مستبدٍّ أذاقهم العذاب مدة نصف قرن وتحطيمهم لشبكتِهِ الدمية.. لو انتبه الغافل إلى هذه الإنتصارات لأدرك مدى بسالة هذا الشعب الأبي وقوته المعنوية؛ هذا الشعب الصغير من حيث العدد، والقويّ بإيمانه وإخلاصه، في وجه مَنْ يغترُّ بكثرته، وما أكثر الزّبل والقمامة! «قُلْ لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ...» (المائدة/100). ولو أقرّ المُغرضون بما يجول في صدورهم من الحقيقة الّتي تهمس إليهم ضمائرُهُمْ، لأدرك العالَمُ كلُّهُ أصالةَ أبناءِ هذا المجتمع، وأرومتهم الطيبة، ومدى استعدادهم للموت في سبيل كرامتهم.

ثم انتصر الليبيون على معاقل التخلُّف، ورموز التطرُّف والتزمُّت: انتصروا على الشعوذة والتعصُّب، وعلى القبلية والمذهبية والاتجاهات الدخيلة، والعقلية العاطلة. ثم انتصروا على جاهلية الغرب وحضارته الزائفة وفلسفته المستمدة من الكتاب المحرّف. هذه الانتصارات، ما لبثت أن أوقدت نارًا في القلوب الحاقدة، حتى تحالف عالمُ الحماقة على

تطويق الشعب الليبيِّ وعزله وخنقه منذ عام 2011م.، وقد عاد القَدَرُ يبليهم اليوم بأنفسهم في وجه جماعات متطرفة ومسلحة، وينتظرهم فجر جديد.

هذا ما يبرهن على القوة المعنوية الّتي يمتاز بها الشعب العربي الليبي عن كافة المجتمعات البشرية في كلّ مرحلة، وحتى في هذه المرحلة الأخيرة الّتي انهار فيها كثير من القِيَمِ بدافع الاتصالات والسرعة والرحلات. فلم ينجُ مجتمعٌ من مخاطر هذا التطوّر إلاّ بقدر ما احتاط في دفعها.

ولكنّ الليبيين الّذين أثبتوا قدرتَهم في كلِّ تلك الانتصارات، وفي مقاومة جاهلية هذا القرن، لم يكونوا جاهزين بالقدر الكافي بمعلوماتٍ دقيقةٍ حول الطباع المتنوّعةِ للجنسيّاتِ والطبقات البشرية المتوافدة إلى بلدهم. فلم يُجَرِّبوا الاتّصالَ بالعناصر الطيّبةِ بين الجاليات الموجودة على أرضهم لتمهيد سُبُلِ الحوار مع الجهات الحيّةِ والعقول النّيِّرة. ولذلك لم يهتدوا بعد إلى معرفة تحديد استراتيجيّات حكيمة في التعامل والأسلوب، مما جعلهم يصطدمون بردود فعل حتى ممن يساندهم ويدافع عنهم. فتمخضت عن ذلك مشاكل معقدة حتى مع الأجانب الّذين تعاقدوا معهم على تنفيذ مشاريع حيوية على أرضهم، وخالطوهم ونالوا تقديرَهم. ثم لم يلبث أن وقع النزاع بين الطرفين، وانفصمت عرى الصداقة، وأفضى الأمرُ إلى تطوّراتٍ لم تكن في الحسبان.

هذا أمرٌ طبيعيٌّ بالنسبة لمجتمعٍ لم يحظ من الراحة برهةً، وعاش دائمًا في حالةٍ شبه تأهّب للدفاع عن كيانه. وبالتالي فان روح البداوة الّتي مازالت غالِبَةً على مزاجهم، جعلهم ينطلقون من جانب العاطفية في أكثر من مواقفهم، وتعاملهم. هذه الروح الصافية من كدورات النفس المجبولة على الجدل والتفلسُف، جعلهم لا ينظرون إلى الأحداث إلاّ من زاويتي الحُسنِ والقُبْحِ. فالألوانُ باختلاف أنواعِها عندهم لا تتجاوز عن الأسود والأبيض. والإنسانُ في نظرهم إمّا صديقٌ وإمّا عدوٌّ. والغايةُ في دفاعهم إمّا نصرٌ وإمّا استشهاد... هذه الروح الشامخة الأنفة الّتي ما شابها مثقالُ ذرّةٍ من أدران الازدواجية والنّفاق، ولم يُكدّر صفاءَها خبثُ التملّق والمداهنة، قد جعلهم في تردُّدٍ دائمٍ، وضَيَّقَ عليهم أبوابَ التعامُل باللطف والرفق والمرونة واللين مع الحيطة.

"الحقُّ مرٌّ، والدواءُ مرٌّ، والصديق كلامُهُ مرٌّ" كما في المثل التركيِّ. ولذلك لابد أن يكون شيءٌ من المرارة في الكلام إذا قلنا: إن الرّيبَ قد أصبح ظاهرةً متفشّيةً في البلاد العربية بوجهٍ عامٍّ، وفي ليبيا بوجهٍ خاصٍّ. وغالب الظنّ أنّها من جملة السلبيات الّتي ورثها الاستعمار. فالمواطن هناك يشك في الرجل الأجنبيّ، ويرتاب منه. ومنهم مَنْ لا يُفَرِّقُ في ذلك بين المسلم والكافر، والبريءِ والمتّهم؛ دون أنْ يكونَ لديه ما يبرّرُ به هواجسَه! "الأجانب كلهم جواسيس

خونة؛ لم يأتوا إلاّ ليطّلعوا على أسرار البلد، وليغتنموا من ثرواته ويمتصوها؛ ثم ليرتكبوا الغدرَ بعد أن يعودوا إلى بلادهم!" في الواقع أنّ هذا الخطأ لم يقع فيه المجتمع بأسره، ولا حتى غالبُهُ. ولكنّ الّذين وقعوا فيه، أثاروا الذعر في نفوس مَنْ جُبِلَ على الخوف من الأجانب، حتى إذا رجعوا إلى بلادهم، اتخذوا من هذا الخطأِ ذريعةً، فأشاعوا أنّ ليبيا بلد الإرهاب، وأثاروا العالم ضدّها؛ لينتقموا بذلك ممن أساءوا الظنَّ فيهم، وليفرّجوا عن كبتهم وكربهم.

لا شك أن المواطن الليبيَّ لن ينسيَ ما قد أذاقه الأجنبيُّ أيامَ الاستعمار من الإرهاب والغدر والاضطهاد والتعذيب والإهانة وغيرها من سائر أشكال الظلم والتّنْكيل؛ ولكن يجب عليه أن لا ينسيَ أيضًا أنه "لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىَ." (الأنعام/**164**؛ الإسراء/**15**؛ الفاطر/**18**؛ النجم/**38**)

اللّيبيُّ أجدرُ بمعرفة هذا القانون الإلهيّ الحكيم، أجدر به من سائر الأجانب، وحتى من الأتراك (المسلمين). لأنّ عشرات الملايين من الأتراك (على الرغم من زعمهم أنّهم مسلمون)، يجهلون هذه الآيةَ الكريمةَ ومعناها؛ ولا يعلمون أين تقع من القرآن الكريم! ولأنّ أكثرَهم لا يعتقدون أنّ للقرآن علاقةٌ بأمور هذه الدنيا. بل يعتقدون أن القرآن لا يُتْلىَ إلاّ في المسجد والمقبرة فحسب! فهو لا يتجاوز عندهم عن كتابٍ للموتى ليس إلا... بينما الليبيُّ يعلم بالتّأكيد أنّ الله قد نهى عن سوء الظنّ فقال:"يَا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا اجْتَنِبوُا كَثيِرًا مِنَ الظَّنِّ، إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ." (الحجرات/**12**)؛ وأمر بالعدل فقال:"إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْساَنِ." (النحل/**90**). ومن عظمة القرآن، وشموله وميّزاته العالمية: أنّ هذا النهيَ والأمرَ لا ينحصران في جنسٍ أو مجتمعٍ أو فئةٍ من النّاسِ بعينهم، بل يشملانِ النّوعَ الإنسانيَّ بتمامه. فالمسلم والكافر والمواطن والأجنبيُّ سواء فيهما. "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ." (المائدة: **8**)

هذا وإنّ الأجانبَ المتعاقدين مع الجهات الليبية الّذين يُقيمون على أرضهم للعمل، هم في ذمّة الليبيين وتحت حماية القانون الليبيّ. ومن جانب آخر، هم ضيوف الليبيين. لأنّهم لم يدخلوا هذا البلدَ إلاّ بالتعاقد، وبعد الحصول على التأشيرة، وبناءً على دعوةٍ من الجهات الليبية. إذًا لا يجوز اتهام شخصٍ أو فئةٍ منهم بذنب الدولة الّتي يحملون جنسيتَها.

ومن أهمّ ما يجب التنويه به لدى هذه المناسبةِ، مشكلة الالتباس. هذا خطأٌ آخر يختلف بميّزاته عما سبق ذكره. وقع فيه الليبيون بسبب نقص المعرفة.

في الحقيقة التبس على الليبيين أمورٌ في الوهلة الأولى من تعاقدهم مع الشركات التّركية الّتي دخلت أرضَ ليبيا للعمل فيها، وأسفر ذلك عن مشاكل عديدة فيما بعد، بدأت أماراتُها مباشرةً مع بداية العلاقات التّركية–الليبية من عام 1974م. ثم تضاعفت حتى انتهت بانسحاب هذه الشركات من ليبيا، إلاّ عدد قليل منها.

لكن، ما الّذي التبس على الليبيين في هذه المسألة، وما هو أصل المشكلة وأسبابُها؟

إنّ هذه الأسئلة وما يتفرّع منها من استفساراتٍ مترابطةٍ أخرى، لَهي جديرةٌ بالتّأمُّلِ فيها، والإجابةِ عليها طولاً وعرضًا في ضوء الخلفيات التاريخية للعلاقات التّركية–العربية. ولكنّها قضيةٌ مترامية الأطراف لا يسع المقام لتحديد أبعادِها المتشعّبةِ في مثل هذه السطور المتواضعة الّتي لا تتعدّى عن تسجيل صُوَرٍ خاطفةٍ من ذكرياتي، ولقطاتٍ سريعةٍ لمرحلةٍ زمنيةٍ قضيتُها على أرضِ ليبيا.

لا شك من أنّ صلة الأتراك بالليبيين كانت قويةً واستمرّت منذ البداية وعبر القرون إلى يومنا هذا، وإن انقطعت في بعض المراحل. ولابد أن نؤكّد على أنّ هذه الصلةَ كانت ولا تزال أقوى منها بالمقارنة من صلة الأتراك مع بقية المناطق العربية. هذا هو الدافع الّذي جمع بين الطرفين مرةً أخرى بعد أن فصل بينهما الاستعمار الغربيُّ المتحكّم في الأراضي الليبية منذ مدّةٍ تزيد على نصف قرنٍ.

ولكن غابت عن علم الكثيرين أمورٌ دقيقةٌ لها تأثيرها في اختلاف هذه الصلة وصفًا وقوّةً من مرحلةٍ إلى أخرى. هذه من مهمّة الباحثين الخبراء أن يتوغّلوا فيها من الناحية التاريخية والسياسية والاجتماعية. ولا يفوتني أن أقول هنا بهذه القرينة وبالتأكيد: أنّ الأتراك والعرب على وجه العموم، لم يتعرّف أحد الطرفين منهما على الطابع الفكريّ والاجتماعيّ والقوميّ للطرف الثاني بعمقٍ وبرؤيةٍ واضحةٍ منذ التقائهما تحت مظلّةِ الإسلام إلى هذه اللحظةِ، وذلك على الرغم من المشاركة والتعاون والعلاقات الكثيفة الّتي جرت بين الطرفين طوال القرون. وأتحدّىَ أيَّ باحثٍ وأيَّ متخصّصٍ في أصناف علوم التاريخ، أتحدّاه إن زعم أنه يبرهن خلافَ هذا الكلام الّذي سجّلتُهُ، وأتحمّلُ مسئوليتَهُ؛ وأنا من وراءِ ما قلتُهُ إلى أبد الآبدين!

فمن كان يشكُّ من هذه الحقيقةِ، عليه أن يقرأَ ثلاث كتب ألّفتُهَا في ضوء الوثائق والحقائق.

* إثنان منها باللّغة العربية، وهما: (الطريقة النقشبندية بين ماضيها وحاضرها)، و(تركيا في ضوءِ الحقائق) فمن يحظى باستيعاب ما يقدّم هذان الكتابان من المعلومات بتفاصيلها، سوف يتعرّف بذلك على الصورة المتخفية للجانب الروحي الراسخ في طينة الإنسان التركيِّ منذ حقباتٍ قبل الإسلام؛ والّذي يختلف به اختلافًا كبيرًا عن العرب بنزعاته ذات الوجوه المتعدّدة والمتشاكسة.

* والثالث، كتبتُهُ باللّغة التّركية. يجوز أن نتصوّرَ عنوانَهُ بالعربية: (هل الإسلامُ وَالْمُسْلُمَانِيَّةُ **Müslümanlık** هما الشيء نفسُهُ)؛ ليتعرّف القارئ بهذا على أسرار الطبيعة الاجتماعية والصورة المتنكّرة لتاريخ هذا القوم الّذي يختلف أيضًا اختلافًا كبيرًا عن العرب بعقليته الغريبة، وطريقة فهمه الخاصِّ للإسلام، ومواقفه المتمايزة من الأحداث الكونية والحيانية.

كلّفني هذه الكتب، فنذرتُ ريعان شبابي وأحلى أيامي في جمع وثائقها وطاردتُ المصادر الّتي استقيتُ منها لتعزيزها. وسهرتُ على تدوينها حتى أخرجتُ كلاًّ منها إلى حيّز الوجود. سوى أنّ هذه الأعمال التي تمتاز بأهمية بالغة لما تحوي عبر ثناياها من معلومات دقيقة ونادرة قلّما يحظى بها القارئ في غيرها من المصادر المتوفرة، لكنها ما تزال تنتظر مَنْ يمدّ إليها يد المعونة ليتمّ طبعها ونشرها (بعد تعريب الثالث)، وذلك في أرضٍ تتوفّر فيها الحريةُ والأمانُ والطمأنينةُ لي،كمؤلّف خاطَرَ بحياته في إثبات حقائق مكتومة وجمعها في هذه الكنوز الثلاثة، حتى يأخذ كلٌّ منها مكانَه اللائقَ في عالم المعرفة وفي متناول أهل العلم والثقافة والبصيرة.

إذًا سوف ينجلي أمام العيون كيف أخطأ الليبيون في اختيار الشركات التّركية المملوكة لشبكة (المافيا) المتحكّم في الشعب التركيِّ؛ وكيف تدفّقت الثروات من الخزانة الليبية إلى جيوب المقاولين العلمانيّين واليهود (الدُّنْما) عملاء إسرائيل، وأعداء العرب والإسلام الّذين استغلّوا الشعبين التّركيَّ والليبيَّ بالتعاون مع الحكومات التّركية عبر مرحلة لا تقل عن عشرين عاماً؛ وكيف استخدموا هذه الثروات في إلحاق الضرر بعلاقات القاعدة الشعبية للطرفين؛ حتى غادر الجموع الكادحة من أبناء الشعب التركي أرض ليبيا إلى وطنهم محرومين من حقوقهم.

ولهذا أعود فأقول مرةً أخرى: إنّ ليبيا تركتني بين إعجابٍ وحيرةٍ. ساقني القدرُ إلى هذا البلد الطيّب الزاخر بتراث الحضارات، فمكّنني هناك من مخالطة شعبٍ يمتاز بين جميع شعوب العالم بطابعه الفطريّ، وتعامُلِهِ السّهلِ، وحياته البسيطة الخالصة من العادات والتقاليد المعقَّدَة. أقمتُ بين ظهرانَيْهم مدةً أرْبتْ على أحد عشر عامًا؛ فتعرّفتُ خلالها على الطبيعة النّقية الّتي لم تُشَوّهْها الحضارةُ الغربيةُ الزائفةُ بعد؛ واستنشقتُ هناك الهواء الطلق، وجالستُ

أبناء هذا البلد، خاصّةً الكادحين منهم الّذين لا يعرفون النّفاقَ ولا الغدرَ ولا الكذبَ؛ يتكلّمون بصوتٍ مرتفعٍ، ولكنّهم لا يستكبرون. تعلّمتُ من هؤلاء ما لا أتصوّرُ أن يكون لي منه حظٌّ لو عاشرتُ المثقّفين منهم. فلم يكن من المقدور أن أجالسَ المتعلّمين من أبناء ليبيا إلاّ لحظات في مكاتبهم الفاخرة، حول طاولاتٍ وفي جوٍّ يتحكّمُ فيه جمودُ الرسمية وبرودة المصلحة. ولهذا ما لمستُ تلك المسحةَ الدّافئةَ والشمّةَ الطيّبةَ الليبية حتى في المكتب الشعبيِّ الليبيّ (القنصلية الليبية) باسطنبول، إلاّ في الفترة الّتي كان الأخ علي منصور الزياني هو المسئول فيه.

ولابد أن أعترف بهذه المناسبة بأني ما استأنستُ بأحد من أبناء شعبي مدة حياتي؛ إلاّ بعددٍ منهم من أصحاب المروءة والنّفوس الطاهرة والأخلاق السامية، وقليل ماهم! ولكنّي أنستُ دائمًا وأنا بصحبة الرجل العربي الليبي، وفي جلساتٍ يدورُ فيها حوارُهم. وكم أحببتُ أن أكون دائمًا بجانبهم، وفي خيمهم (وحياشهم)، وفي مزارعهم ومساجدهم، ومعهم في مرابض أنعامهم حين يُريحون وحين يسرحون. فوددتُ أن أُقيمَ في جوارهم على مدى حياتي، لولا أنْهَتْ تلك اليدُ الرّسميّةُ المتحجّرةُ إقامتي في ليبيا لانتهاءِ عملي هناك! لأني كنتُ تركيَّ الجنسية أجنبيًّا (!) بحسب القوانين الّتي تتعارض مع مبدأ الأُخُوَّةِ الإسلامية التي ينص عليه كتاب الله في قوله تعالى "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ". فإني لأُنادي على رؤوس الأشهاد بأنّه لا ينبغي أن يعترف الرّجل المسلم بأمثال هذه القوانين؛ وعليهم أن يضربوها بوجه الحائط، لأن الرجل المسلم يملك حق المواطنة في أي منطقة من الوطن الإسلاميّ الكبير بصورة طبيعية. ولا يحق لأيّ سلطةٍ أن ينتزع هذا الحق من الشخص الّذي خلقه الله مسلمًا وهداه إلى صراطه المستقيم؛ إلاّ إذا ثبتت عليه خيانةٌ أو شهد عليه أهل العدل من المؤمنين بنفاق مُجرَّبٍ.

وكم أتشوّقُ لو ألقى صديقًا لي من أبناء ليبيا الحبيبة على رصيفٍ في زوارة وصبراتة و صرمان والزاوية وطرابلس؛ أو أُجالسَهُ على رمالٍ ببقعةٍ في بوقرين ومصراتة وسرت؛ حتى أسمع منه مرة أخرى تلك الكلمات الطيبة: "شن حالك يا فريد، تبرزو، مابيكشو، خيرك مانشوفكش؟"

نعم، هكذا تركتني ليبيا بين حيرةٍ وإعجاب، وتساؤلٍ واشتياق. أعطتني دروسًا لم أتلقّها مدةَ عشرين عامًا من حياتي الدراسية. أكسبتني عبرةً وحنكةً، حظيتُ بفضلها فرصة النّظر إلى جمال الطبيعة، والإطلاعَ على آثار الحضارات المتعاقبة؛ وتذوّقتُ حلاوة اللسان، ولمستُ حقيقة الصداقةِ والإخلاصِ. ومن خلال هذه الدروس والتجارُبِ. تعرّفتُ كذلك على أصنافٍ غريبةٍ متمايزةٍ تتألّفُ منها المجتمع التركيُّ؛ وعلى معتقداتهم، وأفكارهم، وسلوكهم، وعقلياتهم المتضاربة. تعرّفتُ على هذه الحقائق حين أطوف بين فئاتٍ من عمّال الأتراك في مواقع الشركات التّركية بمختلف مناطق ليبيا، فلمستُ اختلافاً كبيراً من فئةٍ إلى أخرى في سلوكها الاجتماعيةِ، واتجاهاتِها الدينيةِ، ونزعاتِها

الإيديولوجيةِ، ومستوياتِها الثقافيةِ... هكذا عرَّفَتْني ليبيا على شعبي في الوقت ذاته، وعلّمتني الحياة... ليبيا الحبيبة؛ ليبيا، وطني الثاني...

***

الشعب الليبي مجتمع يسلك مع الفطرة

«فِطْرَةَ اللهِ الّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...» (الروم/30)

إنّ هذا المجتمع لم يعتره شيءٌ من عطبات الحضارة الزائفة. بل انحصرت خساراتُها في إطارٍ غير ماسٍّ بالبنية الروحية والأخلاقية لهذا الشعب. هذا على الرغم من حكم الاستعمار وسياسته الطاحنة الّتي تبنّت تشويه القِيَمِ السّاميةِ، وصَهْرَ كيان الشعبِ الليبيِّ في بوتقة الغربِ.

لقد أبَى هذا المجتمع أن يندمج في صفوف الجالية المستوطنة من الطليان والمالطيين وغيرهم من الأجانب الّذين مرّوا بهذا البلد أو أقاموا فيها لحاجةٍ مّا. وبهذا فقد أبَى المجتمع إلاّ أن يثبتَ على أرومتِهِ وحقيقتِه.

قاوم الليبيون كافةَ أشكال الاستعمار الّذي تزوّد الغربُ لأجله على أرضهم. فانتصر أبناء ليبيا في نهاية هذه الحروبِ على المستعمرين واستطاعوا أن يجلوهم من فوق أرضهم، ليس بقوة الحديد والنار فحسب؛ بل بقوة الإيمان في الوقت ذاته، وبالإخلاصِ والتّضحيةِ والسموِّ الرّوحيّ. أمّا هذه الفضائل فانّ كلّها تنبع من منهل الفطرة. لأنّ الظلمَ بكافةِ أشكالِهِ إنما هو خروج على نظام الطبيعة الّذي يُسمّى الفطرة في مصطلح الإسلام. أما عكسه، أي مقاومة الظالم، والأخذ على يده وإحباط أعماله، فإنّه دفاعٌ عن الفطرةِ، وردُّ فعلٍ تستوجِبُهُ الفطرةُ.

ألا ترون أنّ أيَّ جنسٍ من أجناس الأحياءِ، حتى الحشرات والحيوانات الدقيقة لا تألو جهدًا في الدفاع عن نفسها. وهذا برهانٌ قاطعٌ على ثبوت حقائق ثلاثة تتبلور في مقدّمتِها:

أوّلاً: الدفاع انسياقٌ فطريٌّ وإحساس داخليٌّ وانسجامٌ مع نظام الطبيعةِ.

ثانياً: التواني فيه والاستسلام تقصيرٌ، بل مشاركة مع الظالم في الخروج على الفطرة.

ثالثاً: الظلم خروج علنيٌّ على الفطرة، وتمرُّدٌ في مواجهة الهيمنة الإلهيةِ .

خاض الليبيون في معركةٍ ذات جبهاتِ متعددةٍ ضدَّ كلِّ نزعةٍ تتعارض مع الفطرة الإنسانية ونواميس الكون. قاوموا الفساد والإحتكار السياسي، ومنعو استعمال الخمر والتعامل الربوي الذي لا رحمةَ فيها، ولا اعتبارَ للمُثُلِ العُلْيا والقِيَمِ الساميةِ في مجتمع يتعامل بالربى.

صان الليبيّون بلادَهم من خطر الشيوعيةِ المتخفية من وراء اللون الأخضر. لأنّها تتعارضُ مع الفطرةِ. إذ يتجرّد الإنسان في النّظام الشيوعيّ من إنسانيته تمامًا، فيتحوّلُ إلى حيوانٍ لا دينَ له ولا حياءَ ولا مالَ. الظلمُ في هذا النظام شامل وأمرٌ معقّدٌ؛ بحيث لو ذاق أحد النّاس مرارة الظلم، فأحسّ بها في أعماق نفسِهِ في بلدٍ شيوعيّ (وإن كان رئيس الدولة)، فإنّه لا يجد السبيلَ ليتظلّمَ حتى بالدعاءِ على عدوّهِ. لأنّ الإنسانَ الشيوعيَّ يجب عليه أوّلاً أن يكون قد حلّ ربقة الدّينِ من عنقه. وما أشدّ ذلك خروجًا على الفطرة.

شنّ الليبيّون الحربَ على الفكر الانعزاليّ الّذي يتبنّى القضاءَ على مقوّمات الانتماء المحلّيّ، وطمس معالم الشخصية المحلية. وهذه حيلةٌ خبيثةٌ أخرى، يلجأ إليها العدوُّ إذا يئس من تضليل المجتمع بأساليبه الّتي يتوجّس الشعبُ خطورتَها، فيعودُ يُعكّرُ أفكارَ المغفّلين من النّاس بسموم الانعزالية. وهي فكرةٌ خطيرةٌ يتخلّى بها الإنسان عن ميّزات قومه، فيبدأ يعتزُّ بأمجادِ قومٍ لا صلةَ له بهم، وقد أبادهم الله وجعلهم عبرةً لأولي الألباب.

يقول تعالى: "وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ." (القمر/51) أي فهل من مُتَّعِظٍ بما كانوا فيه من إفراطٍ وتفريطٍ في حياتهم؟!

في الحقيقة عاش أقوامٌ قبلنا كانوا على ضلالٍ وعمى. يُخبرُنا كتابُ الله جلّتْ كلماتُهُ، عما حلّ بهم من النّكال في كثيرٍ من آياتِهِ، فيقول: "أَوَلَمْ يَسيروا فِي الأَرضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ الّذينَ كانوا مِنْ قَبْلِهِمْ، كانوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثارًا فِي الأَرضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنوُبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ." (الغافر/21)؛ ويقول تعالى: "أَلَمْ يَرَوْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنّاهُمْ فِي الأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ، وَأَرْسَلْنا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْرارًا وَجَعَلْنا الأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ، فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنوُبِهِمْ وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرينَ." (الأنعام/6) ويقول "كَدأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَذَّبوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنوُبِهِمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ، وَ كُلٌّ كانوا ظالِمينَ." (الأنتفال/53) كذلك كُتُبُ التاريخ والسِّيَرِ مشحونة بأخبارهم. وقد نلمس بين آثارهم ما يُدْهِشُنا من أنماط حياتهم وتعاملهم من إشراكٍ وفجورٍ ومجونٍ وشذوذ.

فعلى سبيل المثال: زرتُ يومًا مدينةَ صبراته الأثرية، وبينما أنا طائفٌ بمعالمها سارِحَ الفكر إلى القرون الّتي كانت هذه المدينةُ فيها آهلةً بقومٍ لهم عاداتٌ وتقاليدُ ومعتقداتٌ تختلف كلّ الاختلاف عما نحن عليه اليوم.

فمثلاً كان القرطاجيون يقدّمون قرابين إلى آلهتهم وبينها أطفالٌ. وقد ثبت عن طريق البحوث أنّ كلّ أسرةٍ من هذا المجتمع الوثنيّ كانت تُقَدّمُ إلى الآلهةِ أوّلَ مولودٍ رُزِقتْ مباشرةً، فتذبحه أمام نصبٍ منها تقرُّبًا إليه.

وفي لحظةٍ من تلك اللحظات الّتي كنتُ أتجوّل في شعاب هذه المدينة الأثرية عثرتُ على بُقْعةٍ منها، كانت قبل أحقابٍ من الماضي البعيد دورةَ مياهٍ عامّةٍ لهذه المدينة. فأخذتني الدّهشةُ عندما وقع بصري على ثقوب مراحيضها وإذا هي متقاربةٌ جدًّا. ولا يحتمل أنْ كان بعضُها مفصولاً عن بعضٍ بحاجزٍ مّا إطلاقًا! فيتأكّد النّاظرُ إليها في الوهلة الأولى من هذه الحقيقة (على أقل تقدير) أنّ هذا الشعب لم يكن في سلوكه وأخلاقه أيّ اعتبار لمفهوم الحياء. بينما الحياءُ خصلةٌ فاضلةٌ وفطريةٌ في الإنسان، تميّزه من سائر البهائم، وتجنّبه من الحياة البهيمية الّتي كانت عليها المجتمعات الوثنية. "فإنّ الحياءَ من الإيمانِ" (رواه البخاريُّ رقم الحدبث/23)

كذلك قتْلُ النّفس الّتي حرّمها الله إلاّ بالحقّ، هو من أعظم الجنايات، وأفظع ما يكون من نمازج الخروج على الفطرة.

إذًا فما العبرة والفائدة من الاعتزاز بأقوامٍ كانت هذه معتقداتُهم وحياتُهم الّتي لم تنسجم مع الطبيعة والفطرة حتى أهلكهم الله وأورثنا أرضهم؟!!

ثم لابد من الاعتبار بالفوارق الّتي تتميّز بها الشعوبُ بعضها عن بعضٍ. يقول تعالى: "وَجَعَلْنَاكُمْ شُعوُبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفوُا." (الحجرات/13). ويقول: "وَلَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالوُنَ مُخْتَلِفِينَ إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ." (هود/118) .

لهذه الحقائق، تتبلور أمامنا: أنّ الانعزال عن القيم الإسلامية الفاضلة، والرجوع إلى ما كان عليه هؤلاء الأقوام الوثنية الضالّة، والاعتزاز بهم، والانتماء إليهم أو إلى مقلّديهم من اليهود والنصارى والمجوس والعلمانيّين، إنما هو التخلّي عن المبادئ الفطرية، بل هو خروج عليها، وهو ضرب من الرّدّة والعياذ بالله!

إنّ الليبيين لا محالة قد انتبهوا إلى هذا الخطر الملثّم بوشاح الأدب وأحبطوا أعمال سماسرة الانعزال في أمد غير بعيد. وأقاموا على ذلك الحجّةَ الدامغة عندما اقتلعوا تمثال سفيروس سبتيموس الروماني من الساحة الخضراء ورموه في مكانٍ يليق به.

كذلك أثبت الليبيّون انسجامهم مع الفطرة عندما انتبهوا في هذه السنين الأخيرة إلى خطر الزندقة، فوضعوا الحدّ من نشاطات الصوفية.

ذلك أنّ ظاهرة التصوّف الّتي بدأت تنمو من بداية العهد العباسيّ وتتفاقم مع اتساع حدود الدولة الإسلامية، إنّما كانت في حقيقتها فتنةً تتنكّر للمسلمين بلباس الطهر والزهد والعفّة والإخلاص، وتُبطِنُ من كلّ رذيلةٍ باطنيةٍ تُطْفِئ نور الإيمان المتدرّج في قلب الجاهل والغافل وحديث العهد بالإسلام. شعر الليبيّون بخطر هذا السّرطان الّذي وخز بمخالبه جسم الإسلام منذ ألف سنةٍ، وأصبح هو الحافز الرئيسيّ لظهور الفساد في حياة المسلمين، والباعث الأساسيّ في هزيمتهم وسقوطهم تحت نير الاستعمار.

انتبه أبناءُ ليبيا ولو في وقتٍ متأخّرٍ إلى أنّ الفكر الصوفيَّ قد حمل إلى عقول المسلمين من كلِّ عقيدةٍ باطلةٍ وفلسفةٍ دخيلةٍ وتصوُّراتٍ خطيرةٍ تثير فيهم روح الإلحاد والمروق والزندقة والإباحية والدّجل. كالقول بوحدة الوجود، ووحدة الشهود، والفناء في الله، وادعاء علم الغيب، وإقامة حفلات الرقص والسماع على حساب الدّين، يجتمع فيها الرجال والنساء. فإنّ كلّ هذه المفاهيم المضلّلة والعادات المنكرة إنما هي مستمدّةٌ من البرهمية والبوذية والزرادشتية والمانوية والديصانية والغنوصية والأفلطونية واليهودية والمسيحية وغيرها.

عَرَفَ الليبيّون هذه الحقيقةَ بفضلٍ من الله وانطلاقًا من الفطرة الإنسانية السليمة الّتي جُبِلوا عليها، فكشفوا أسرار هذه الفتنة الّتي انتشرتْ بدافعها الشعوذةُ والدّجلُ والخرافاتُ بأنماطها وحُشِدتْ في مجلّدات من الكتب الصفراء في عهد الأتراك. كذلك أحبط الليبيون الفكرةَ الدجليةَ للرجل المهبول ودسوا كتابه الأخطر في قمامة التاريخ، وأخيرًا أعلنوا الحربَ على الوهّابية الخوارج والمرتزقة التابعين لهم في صفوف التنظيمات الإرهابية.

هكذا أثبت المؤمنون من أبناء ليبيا كفائَتَهم بالانسجام مع الفطرة السليمة في كلّ خطوةٍ من انطلاقاتهم الجبارة. ولهذا تكالب عليهم عالم الكفر، وجحافل الزندقة، وعصابات الوهابية من أبناء الحماقة والتطرّف. زعموا أنّ ليبيا بلد الإرهاب، وأنّ حقوق الإنسان مُهْدَرَةٌ في هذا البلد، وهذا من أشنع الأكاذيب عليهم.

ينسجم الإنسانُ الليبيُّ مع الفطرةِ في عموم أحواله أكثر من أيّ إنسانٍ آخر، ويتميّزُ بهذا الانسجام من سائر العرب. فالشخصيةُ الليبيةُ صريحةٌ، بل مفطورةٌ على الصراحة. لا تتلوّن لأجل المصلحة الفردية، ولا تلجأ إلى النّفاق والتّقيةِ تحت الإكراه. هذه فطرةٌ أخلاقيةٌ، وأخلاقٌ فطريةٌ فيها. الشخصية الليبية تتجدّد وتتفاعل مع كلّ جديد، دون أن يفقد شيئًا من أصالتها كما تتجدّد الطبيعةُ الكونيةُ دون أدنى مخالفةٍ لنواميس الحياة.

ولهذا تمتاز الحياة الاجتماعية في ليبيا بطبيعةٍ هادئةٍ دافئةٍ وملائمةٍ مع الفطرةِ. تنزل السكينةُ على قلب زائر هذا البلد، إذا كان قد نشأ في بيئةٍ غير مطبوعةٍ. ولهذا أقرّ الله عيني عند ما حللتُ بأرض ليبيا عام **1976**م. فأحسستُ بسعادةٍ بالغةٍ مدةَ إقامتي فيها. ولم أشعر في كلِّ تلك المدة الطويلةِ بأدنى شيءٍ من وحشة الغُربةِ

ولعلّ من طرائف السيرةِ: أني ما غادرتُ ليبيا مرةً إلاّ وفارقتني السعادةُ، وطار النّوْمُ من جفوني، وفرغ قلبي مما كان يملؤُهُ من طمأنينة وسرور، وغمرني سحابٌ من الغمّ إذ أترك متن الطائرةِ بمطارِ إسطنبول متوجّهًا إلى قلب المدينة. فلم يُخفّف شيئًا من حزني عقب كلّ رحلةٍ استودعتُ فيها ليبيا إلاّ الصلةُ وضجيج الأهلِ في منزلي خلال فتراتٍ قليلةٍ، حين أراهم حافّين مِنْ حولي، أتسلّى بهم حتى أعود إلى وطني الثاني. وما هممتُ بالرجوعِ إلى ليبيا مرّةً، إلاّ وجدتُ نفسي مغمورةً بالسعادةِ وقد انزاح عني الصداع الّذي ينتابني عادةً في فترات متقاربة مدّةَ إقامتي بإسطنبول.

هكذا حنّ اشتياقي إلى ليبيا دائمًا وإلى الليبيين. لا أشكُّ أبدًا في أنّ الليبيين خاصّةً هم صفوةُ العربِ، أبناءُ الفاتحين، أحفادُ بني هلال الّذين فتحوا هذه المنطقةَ وما يليها في شمال أفريقية بقيادة الصحابِيّ الجليل عمرو بن العاص في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ثم استوطنوها وعمروها وخدموا الإسلام في بناء تاريخه وأمجاده. نشأ فيهم عبر التاريخ أبطالٌ، ورجالُ العلم، ومفكّرون، وروادٌ، وجنودٌ مجهولون ساهموا في إرشاد البشرية والنّهوض بالأمّة، ودخلوا بذلك في سجلِّ الشهداءِ والصالحين وحسُنَ أولئك رفيقاً. فقد ثبتَ لنا من خلالِ المعاشرة معهم والاحتكاك بهم بالذات، أنّ الليبيّين بالمقارنة مع بقية العرب والمسلمين من حيث النسبة، هم أفضلُ أبناء الأمّةِ الإسلامية سلوكًا وأخلاقًا، وأقواهم إيمانًا، وأنقاهم سريرةً، وأسلمهم قلبًا، وأشدُّهم انقيادًا وإخلاصًا للدِّين الحنيف، وأكثرهم حبًّا للقرآن ولُغَتِهِ، وأطلقُهم لسانًا، وأحسنُهم جودًا وكرمًا، وأشدُّهم اهتمامًا بقضية فلسطين وقضايا المسلمين بأسرها، وأكملُهم استعداداً لمواجهةِ العدوّ في سبيل كرامتهم والدفاع عن عِرضهم وحقوقهم، مما يبرهن على مستوى هذا الشعب في التضحيةِ لأجلِ حريته.

***

مقتطفاتٌ من ذكرياتي في ليبيا

***

الجهل أهون من النفاق

ذهبتُ إلى مسجدٍ بمدينة زوارة في الأسبوع الّذي زرتُ ليبيا لأوّل مرةٍ. كان في بهوه بضعةٌ من المسنّين ينتظرون للصلاة، فسلّمتُ عليهم وجلستُ على طرف من صفّهم، وبيدي نسخةٌ من صحيفة (الفجر الجديد).

سألني أحدهم باللهجة المحلية قال "شن فيها؟". فما كدتُ أفهم شيئًا مما يقصده الرّجلُ بهذا الأسلوب الغريب. إذ كنتُ حديث العهد بليبيا، فلم أفهم إلاّ من يكلّمني بالفصحى. وكثيرًا مّا كان النّاسُ يستغربون مراعاتي لقواعد الإعراب. وإنّما كنتُ أهتم بهذا الجانب في حواري حذرًا من الوقوع في لحنٍ يستقبحه العربُ، لظنّي أنّ غالبَهم يراعون قواعد لغتهم. وما أن وجدتُهم على عكس ذلك فتعجّبْتُ من أمرهم، كما أنهم كانوا يتعجّبون من كلامي وأحيانًا يطربون له؛ ويقول بعضُهم "أنت تتكلّم زي الرّاديو بالضبط!"، ثم نضحك جميعًا، ويطيب الحديثُ، ويسودنا جوٌّ من الفكاهة.

فعاد الرّجلُ يسألني ثانيةً: "– قتلك شن فيها جديد؟!" فهمتُ أخيرًا أنه يعني: "ماذا فيها من أخبارٍ جديدةٍ؟" فناولتُهُ الصحيفةَ لعلّه يقرأ العنوان بنفسه، فقابلني وهو يردد "ما نقراش، ما نقراش!." يعني، لست بقارئٍ أو أجهل القراءة.

فلما علمتُ أنه أُمّيٌّ، نقلتُ له ما ورد في العنوان الرَّئيس "أنه داهمتْ جماعاتٌ من الهندوس منطقةَ أسّام الآهلة بالمسلمين في الهند، فقتلوا منهم ما يزيد على خمسة آلاف؛ شملت المجزرةُ سكّانَ المنطقةِ دون تفريقٍ بين الشيوخ والشباب والأطفال والنساء."

فوجدتُ أمارات الحزن والأسى تعلو وجهَ الرّجلِ وهو يلتفت إلى جلسائه قائلاً "أريت شن يقول الشاب: يقلك الكفار قتلوا في العرب، خمس آلاف منهم في الهند!"

فلما علمتُ من كلامه (أن الّذين قُتِلوُا هم عرب في ظنِّهِ)، حاولتُ أنْ أكشف هذا الالتباسَ، فقلتُ له بلطف: عفوًا، لعلّي قصَّرْتُ في التعبير؛ فإنّ الّذين قتلهم الهندوس، هم مسلمون من سكّان الهند.

فما رأيتُ منه إلاّ ردّ عليَّ قائلاً بالحرف الواحد: "خلاص، حتى بي مش قتلك همَّ عرب؟!!

ثم علمتُ من هذا الرّدِّ الحاسم: أنّ المسلمين كلّهم عرب في نظر هذا الرجل الأمّيّ الّذي يرمز بهذا التفكير البسيط إلى قطاعٍ من كلِّ شعبٍ لا علمَ لهم بالمعقول ولا بالمنقول؛ وربما لم يقرع سمعهم يومًا من الأيام ما هي الثقافةُ، وما عسى ينطوي عليه تلك المجلدات من الكتب الّتي يحملها أبناؤهم وبناتُهم بين المدرسة والمنزل! ولكن هؤلاء على الرغم من هذه البساطة والسطحية والسذاجة، لا يعرفون الكذب، ولا يُتقنون شيئًا من فنون التملّق والمداهنةِ، يجهلون الحيلةَ بمختلف وجوهها والنّفاقَ تمامًا؛ ولا يُفرّقون بين المسلمين، هذا عربيٌّ وهذا عجميٌّ. بل كلٌّ عندهم سواءٌ وإخوة كما ورد في كتاب الله العزيز "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ." (الحجرات/10)

تذكّرتُ في الوقت نفسه القطاع الّذي يرمز إليه هذا الرجل الأمّيُّ من شعبي، أولئك الّذين ينقسم في نظرهم عالم البشرية على اختلاف عناصره إلى جزأين لا ثالث لهما: الأتراك والكفّار! ولهذا لا قيمة للعرب ولا لغيرهم من سائر الملل والنِّحل في نظرهم أيضًا، إذا كان الإنسان لا يُعلِنُ أنّهُ تُركيٌّ، ولا يعتز بأمجاد الأمّة التّركية مهما كانت جنسيته ولغته وثقافته!

أترُكُ القصّةَ هنا دون أيِّ تعليقٍ على النموزجين، وأيَّ قياسٍ بينهما، حتى لا يحولَ حائلٌ بيني وبين ما بقيَتْ لديَّ آثارُهُ من ذكرياتي، ولا يعرقلني في مسيرتي وأنا أُحاولُ لأَخرجَ من عالم الخيالِ بتحفةٍ أقدّمها للقارئِ في هذه السطور دون أن يضفي عليها القلم ما لا يجانسها.

***

الدماغ المغسول

كانت في كلّ موقعٍ للشركةِ استراحةٌ خاصّةٌ بالموظّفين، يجتمعون هناك في ساعات العطلة. وكلما سافرتُ من المقر الرئيس بطرابلس إلى موقع العمل بمدينة سرت، أَلْتَقِي بالأصدقاء في هذه الاستراحة. وهي تطلُّ على الشاطئ، تقع الآن ضمن العمارات الّتي خُصِّصَتْ يومئذٍ لإحدى الأمانات العامّة (أي الوزارات). كان مصطلح (الأمانة) يُطلَقُ في عهد القذافي بمعنى (الوزارة).

حضرتُ ذات ليلةٍ إلى هذه الاستراحة وأنا قادمُ من طرابلس. فاستقبلني عدد من المهندسين بترحاب وفرح. دار الحديث بيننا طوال ساعات من الزمن، نخرج من موضوعٍ وندخل في آخر دون أن يكون بينهما مناسبة. وغالبًا مّا يدور الحديث حول ظروف العمل ومشاكل التنفيذ، والصعوبات البيروقراطية (الّتي تسمّى الديوانية في مصطلح العرب). وهي النّمطية الجامدة المتسلّطة على أعمال الدولة خاصّةً في البلاد المتأخرة. إذ كانت الشركات تعاني من نفاد السيولة بين فترة وأخرى، فيتمخض ذلك عن مشاكل عويصةٍ تُثَبِّطُهُا عن تنفيذ أعمالها في الموعد المحدد لها. وأحيانًا تعجز عن دفع مرتبات العمال مما ينجم عن ذلك احتجاجاتهم وإضرابهم عن العمل تعود بنتائج سلبية على مستقبل المشروع وتدهور العلاقات بين الشركة والجهات المسئولة.

بينما نتبادل الحديث حول هذه المشاكل تدخّلَ أحد المهندسين آن ذاك قائلاً وبدون أي مناسبة "إنّ اللّغةَ العربيَّةَ والحروفَ العربيَّةَ هما من الأسباب الرئيسة للتخلُّف الّذي تعاني منه البلاد العربية!". كما زعم "أنه لم تحظ تركيا من الرُّقيِّ والتقدُّمِ والازدهار الّذي تتمتع به اليوم إلاّ بعد إلغاء الأبجدية العربية!"(؟!)

أدركتُ في لحظته أن هذا الأحمق إنما يريد أن يُحرجني بما يقذف من ألفاظ عفنة، يريد أن يملأ قلبي أسفًا ليراني مغتمًا فيبتهج لاحتقاره اللغةَ العربيةَ فيشفِيَ بذلك غليلَهُ. لأنه يعلم بالتأكيد أن قاموس اللغة التركية ما زال مشحونًا

بآلاف كلمات ومصطلحات مأخوذة من العربية تُستخدم في جميع مجالات الحياة للأتراك منذ قرون إلى يومنا هذا. ولم تتمكن الحكومات المعادية للإسلام والعربية في تركيا أن تُنقِّيَ (على حد تَعْبِيرِهِمْ) اللغةَ التركيةَ من الألفاظ العربية رغم ما بَذَلَتْ من جهود متواصلة على مدى ستين عامًا (إلى أيام ترغوت أوزال). لكن الرجلَ ظلَّ يتفوه ويتقيأ على بظر أمِّهِ دون مبالات بما تعاني لغتُهُ (التركية) من العجز عن مواكبة المسيرة العلمية والحضارية مع اللغة العربية، يشهد على ذلك العديدُ من الحقائق؛ منها أن اللغة العربية منتشرة في أنحاءِ العالم منذ نزول الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم، وهي لغة كتاب الله العزيز الذي خلَّدَهَا وجعل منها لغةً عالميَّةً رفيعةَ القدر يقدسها مئات ملايين المسلمين العرب وغير العرب. وقد أصبحت اللغةَ السادسةَ للأمم التحدة. والأبجديةُ العربيةُ مُجْمَعٌ عليها في أنحاء العالم، والألفاظُ العربيةُ مضبوطةٌ في القرآن الكريم، ومصادر السنة، والتراث، وآلافٍ من المعجم والموسوعات... وحتى دولة إسرائيل قد وافقتْ (منذ أيام الإنتداب) على أن تكون العربيةُ لغةً رسميةً بإيزاء شقيقتِها العبرية! بينما اللغة التركية متفرقة الشمل، متقطعةُ الأوصال شَعِثَةٌ تعيسةٌ، توالتْ هجماتُ اللغاتِ عليها وأنهكتْ هوج الرياح طلالها. يشهد على هذه الحقيقة لَقَطَاتٌ للاجتماعات التي يحضرها رؤساءُ الجمهوريات التركية، تراهم في عجز عن التفاهم فيما بينهم إذ يتوسط بينهم أعداد من المترجمين وإنَّ هذا لشئٌ عُجاب! هذا غيض من فيض إذا خُضنا في تعداد الأمثلة للمقارنة بين اللغة التركية والعربية، وكفى الله المؤمنين القتال.

لابد هنا أن أعترف بأنّ نمازج الغباء من هذا النّمط ليس بقليل في المجتمع التّركيّ، وإنْ كان العرب يجهلون هذه الحقيقة. فإنّ هذه الأدمغةَ المغسولةَ قد غاب عنها أنّ الأتراك لا أبجديةَ لهم أصلاً؛ ولذلك استعانوا في الكتابةِ بأبجديات أممٍ مختلفةٍ عبر تاريخهم. فلم تكن لأيةٍ منها قيمةٌ علميةٌ أو تاريخيةٌ في اعتبارهم. لذا كلّما وجدوا الأمّةَ الّتي يقتدون بها، أنّها بدأتْ تتدهورُ، تحوّلوا عنها دون اعتبار بما ورثوا عنها من ديانةٍ وقِيَمٍ وعادات. فاختلفتْ عليهم المسالكُ وأعيتْ بهم المذاهبُ وصار كلُّ شيءٍ رأسًا على عقبٍ. ولكن العرب لهم أبجديتهم المشهورةُ والمستَخْدَمَةُ حتى في بلادٍ غير عربيةٍ منذ القرون إلى يومنا هذا؛ مثل ايران وباكستان وأفغانستان. كما أتعجّب أنّه كيف تجهلُ هذه الأدمغةُ ظروف بلدها الّذي كان ولا يزال يعاني من ألف مصيبةٍ أهونها سيطرة (يهود الدوُنْما) على كافّةِ أجهزة الدولة عن طريق أكبر شبكة للمافيا في العالم!

ثم أشكر الله أنّي خرجتُ ذلك اليوم من تلك الاستراحة وقد حظيتُ معرفةً واسعةً حولَ مفهومَيِ الغباءِ والسخافةِ ما لم أكن أحظى مِعشارَها لو درستُ ما يتعلّق بهذين المفهومين دراسة الرّجل الباحث المتخصِّصِ.

ولا أزال حتى هذه اللحظة أذكر بهذه المناسبة آيةً من القرآن الكريم نزلتْ في اليهود، وهي قوله تعالى "مَثَلُ الّذينَ حُمِّلوُا التَّوراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلوُهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أسْفَارًا" (الجمعة/5) أذكر هذه الآية الكريمةَ كلّما تجدّدت صورةُ هذا الرجل في ذاكرتي. هذا الرجل الّذي قد درس العلوم مدةً طويلةً، وحمل خلالها مجلّدات من الكُتُبِ، فتقلّبَ معها حتّى تخرّجَ من كلّية الهندسة وأصبح يُدعى من المثقّفين وهو يكتم ويتجاهل الحقائق التاريخية الّتي يقرُ بها حتى اليهود!!!

***

إبراهيم الفيلسوف

كانت الشركةُ قد خصّصتْ لي سائقًا اسمه إبراهيم، وأصله من مدينة إزمير.

بعد أنْ تعرّفتُ على شخصية هذا الرجل، علمتُ أنه ليس كبقية صنوانِهِ من السائقين رجلاً عاديًّا. بل يتميز بينهم بثقافته، وفصاحته، وعمق تفكيره، واهتمامه ببيئته، على الرغم من أنّ مستواه الدراسي لم يكن فوق الابتدائية.

ثم قرع سمعي أنّ زملائَه قد أطلقوا عليه لقب (فيلسوف) على سبيل المزاح والفكاهة، ينادونه (فيلوزوف إبراهيم)، على الطريقة التّركية؛ أي (إبراهيم الفيلسوف)، لثرثرته، وتعليقاته الغريبة، وتصرُّفه في القصص الّتي ينقلها لهم في ساعات الراحة.

وجدتُ ذاتَ يومٍ كتاباً في متناولهِ يحمله ليتسلّى به في أوقاتٍ ينتظرني عند السيارة (وأنا في اجتماع، أو مشغول بمهمّة في موقع من أماكن العمل، أو في جهةٍ من الجهات العامّةِ)؛ يتسلّى به حتى ساعة العودة.

وقع طرفي على غلاف الكتاب ذات مرةٍ، فإذا به روايةٌ للكاتب التركيّ الشيوعيّ الشهير فقير بايكورت Fakir Baykurt. كتبه تحت عنوان "القرية العاشرة". يستوحي هذا العنوان مقاصدَه من المثل التركيِّ "الناطق بالحق يُطْرَدُ مِنْ تسع قُرًى"

أدركتُ في لحظتِهِ؛ أنّ هذا الرجل – بِغَضِّ النظر عن نزعته الفكرية وانتمائه السياسيّ – أدركت أنه يفوق أمثالَهُ بمستواه الثقافي الّذي يسمح له أن يستوعب المفاهيم المُعَقَّدَةَ في مثلِ هذه الروايةِ، وأنه يفهم أسرار الاتجاه

الأيديولوجي الّذي تتبنّاه. فتأكّدتُ بعد ذلك أنّ السائق الّذي يقود سيارتي، يتصف بذوقٍ أدبيٍّ دقيقٍ، ويمتاز بمعرفةٍ واسعةٍ حول الاتجاهات والّتيارات السياسية، والتطوّرات الّتي تمرّ بها المجتمعات في العصر الحاضر.

كان إبراهيم لا يبادئني بالكلام في الأيام الأولى من خدمته معي. لا يتحدّث إلاّ إذا استوضحتُهُ في شيءٍ من واجباته، فيردُّ عليَّ باختصار واحترام؛ ولكنّه ما لبث حتى ليّنَ شيئًا من قسوة الجوّ الّذي بيني وبينه بلباقته وأسلوبه المرن؛ يحاول ليفسح المجالَ حتى يكلّمني تلقائيًّا، فيتسلّى أثناء التّرحال بحوارٍ دافئٍ أتجاوب معه من خلاله، كما يتسلّى بقراءة الرّواية أثناء الحلّ والراحة وهو ينتظرني عند سيارتي.

انسجمتُ معه بتحفُّظٍ وإلى حدٍّ معيّنٍ حتى لا يستغلّني بمقاصده الّتي لا يكاد يتبلور لديَّ منتهاها، حتى لا أنسحب معه فأتطفل عليه بعد حين... وهذا من المبادئ الهامّةِ في تنظيم العلاقات والرّوابط وتحديدها بين أفرادِ مجموعةٍ يشتركون في العمل، ويختلفون في الاختصاص. فلمّا أحسَّ الفيلسوف بقدر ما أسمح له أن يتفتّح، بدأ يقصُّ عليَّ ما يحلو له من ذكرياتِهِ بأسلوبٍ شيّقٍ؛ فأطربُ لكلامه وأفرح. ولكنّي أتعجّب أنّ كلَّ قصّةٍ يبدأ بها من نقطة الانطلاق، تنتهي دائمًا في آخر نقطةٍ من رحلتِنا مع مراعاته الدقيقة لمسار الحبكة، مهما كانت المسافةُ، بحيث لا يكاد المستمع يتوقع أن هناك جزءٌ تبقّى من القصّةِ.

فمثلاً يبدأ بحكايةِ صفحةٍ من صفحات حياته الّتي جرتْ في إسطنبول؛ فتنتهي القصةُ بتفاصيلها ومراميها ونُكَتِها في اللحظة الّتي يُرْسي المركبةَ أمام مكتب الشركة في بوقرين! كذلك يبدأ بقصةٍ أخرى جرت في طفولته يومًا زارَهم صديقٌ لأبيهِ في بيتهم بمدينة مغنيسيا، يبدأ فيها عند انطلاقنا من بوقرين، وينتهي منها في نقطة الوصول بالضبط، أمام مكتب الشركة بمدينة سرت. وهكذا القصص والنُّكَتُ والنّوادِرُ تتدفّق من قريحةِ فيلسوفنا في كلِّ رحلةٍ، وهو يقود المركبةَ وأنا استمع إليه بشوقٍ؛ وتنتهي كلُّ قصةٍ من قصصه في تمام نقطة الوصول بصورة غير متوقّعة، دون أنْ أتمكّن من الاطلاع على سرِّ هذه المصادفات.

اتّفق يومًا أنْ سافرنا إلى بني وليد لمفاجئةٍ أدخلتْ السرور على أصحاب الشركة وعلى الطفيليين بها من رجال الإدارة. ذلك بلغهم أنه قد اكتملت إجراءات دفع السلفة المقدمة للمشروع، وأنه ينبغي حضور رئيس مجلس الإدارة أو مَنْ ينوب عنه، إلى أمانة اللجنة الشعبية للخزانة هناك؛ ليتسلّم الصّكَّ المرقومة فيه السلفة؛ وكانت مبلغًا ضخمًا.

الخلاصة: وصلنا إلى بني وليد في ساعةٍ مبكّرةٍ وقد بلغ السرور من أصحاب الشركة غايتَهُ. انطلق السائق إبراهيم بسرعة البرق، يفتح أبوابَ السيارة (لسادتة) الّذين لا يكاد يراه أحدٌ منهم في ظلّهِ لاستخفافهم بالعاملين والخدم؛ كما هو موقفهم من كل مَن يعمل تحت أمرهم ويخدمهم. أمّا إبراهيم، فإنه كان يتراءىَ في منتهى درجةٍ من الحماس في خدمة هؤلاءِ الّذين ربما يكرههم كراهيتَهُ للخنزير دون أنْ يشعروا بشيءٍ مما يُبْطِنُهُ لهم في أعماق ضميره.

ثم بعد سلسلة من التوقيعات بمكتب الخزانة، و"الهدرزة"، والشاهي، والوداع، انطلقنا قاصدين طرابلس. وإذا نحن في طريق العودة وقد قطعنا شوطًا منه وحللنا بسهلٍ بين بني وليد وترهونة؛ و"السّادة" كأنَهم في جنات عدنٍ يمرحون ويهزِرون. تتفجّر القهقهةُ من حناجرهم، وأحيانًا تنهزّ السيارةُ من شدة أصوات التصفيق وقد غمرني الصمت في وسطٍ من الضجيج، لا يهمني شيءٌ في تلك اللحظات إلاّ أن أكونَ قد تمكّنتُ من ضبط ما أشاهد من هذه الصُوَرِ الغريبةِ حتى أُسَجِّلَها في مذكّرتي فور وصولي إلى حجرتي الخاصة بمقر الشركة. بينما كنّا نواصل رحلتنا هكذا في طريق العودة إلى طرابلس، وإذا بمركبةٍ قادمةٍ من جهة ترهونة، تسير في تشوّشٍ واضطرابٍ، تنعطف إلى أقصى اليمين فتكاد تخرج من الطريق، ثم تميل إلى أقصى الشمال على نحو سير الثعبان.

فلمّا عاينّا هذه المركبةَ بوضوحٍ وهي تقترب منا كل لحظةٍ، اختلف الجوُّ داخل سيارتنا تماماً، فتركت تلك الجلبةُ وراءَها صمتاً والفرحُ قلقاً، لأنّ الخطر كانت وشيكةً ولم يكن أحدنا يأمن العاقبةَ. أمّا السائق إبراهيم، فقد استقطب نظرُهُ على هذه المركبة المفلوتة من العنان، وقد امتلأ وجهه بالتّجاعيد. تبدو هواجسُهُ واضحةً من هيئته أنه في حالةٍ من التأهُّبِ، يفكّرُ في طريق الخلاص من هذا المأزق حتى لا تتناطح المركبتان. وبدأ يُهَدِّئُ من السرعةِ.

بينما نحن على هذه الحالةِ المتوتّرة فإذا بالمركبة القادمة عَدَلَتْ عن الطريق وَمَالَتْ إلى أقصى اليمين من الجهة المعاكسة، ثم دخلتْ مزرعةً بالقُرب بعد أن خرجتْ من الجادّة مباشرةً، ثم توقّفتْ بحكم الأحداب والحفيرات المنتشرة على ساحة المزرعة.

أرسى إبراهيم السيارةَ على يمين الطريق بأقصى سرعةٍ وانطلق مُهَرْوِلاً نحو المركبة غير مبالٍ بما يقذفه "السّادة" من ألفاظ التّشنيع، ولا بما قد يفاجئ من الطرد والتسفير إلى بلده الّذي يعاني فيه ملايين الشباب من البطالة.

كان هناك شخصان داخل المركبة المصابة بالحادث في وسط المزرعة: سائق، ورجل بجانبه. يجلسان في دهشةٍ وجمود. ظَنَّنا أنّ إبراهيم يريد إسعافهما. بينما لم يكن أحدهما قد أصابتْهُ مضرّةٌ في جسمه. فضلاً عن جَهْلِ إبراهيم باللّغة

العربية. فلا يمكنه أن يفهم شيئًا قد سمع منهما. كما لم ينبِسْ أحدُهُما ببنت شفةٍ في تلك الثواني الّتي أطلّ إبراهيم عليهما.

وما مضتْ بِضْعُ دَقائِقَ حتى عاد إبراهيم وهو يبتسم ويدندن ليمهّدَ السّبيلَ بذلك إلى تهدئة أعصاب "السّادة" الّذين تتطاير شرارات الغضب من بين شفاههم، ينتظرونه حتى يرجع، لينهالوا عليه بوابلٍ من السّبِّ والتحقير جزاءً بما ارتكب هذا الذّنبَ العظيمَ! ولكن إبراهيم الذكيَّ الفطن استطاع أن يفرض نفسَهُ عليهم في ثوان، فيحبط الخطر المحدق به وبصورةٍ غير متوقّعةٍ. استطاع بلباقته وأسلوبه أن يكسبَ مهلةً من خلال مناورةٍ كلاميةٍ أثارت العاطفةَ فيهم بألفاظٍ لطيفةٍ سَلَبَ بها عقول "السّادة" فكأنّما ألجمتْهم قدرةٌ سحريةٌ في تلك اللحظةِ وأجبرتهم على الاستماع إليه بكلّ شوقٍ وانتباهٍ. ثم بدأ الفيلسوف يقصُّ عليهم (ما استطاع أن يستوعب في تلك الدقائق الثلاث ومن خلال تلك النّظرة الخاطفة!) بدأ يشرح لهم ما قد جرى من حادث المركبة، وما تعرض له المسكين صاحب المركبة محمد (؟) وصهره أحمد (؟) على حد قوله؟!

استرسل إبراهيم في قصتهما و"السّادة" يستمعون إليه في استغرابٍ وتعجُّبٍ وانبهارٍ. لا يتكلّم أحدُ منهم، كأنّهم صمٌّ بكمٌ. أو قِطَعٌ من الصّخر، ولم تكن حَالَتِي تختلف عما كان فيه "السّادة". فقد كنتُ غارقًا وكأنّي مع بَطَلَيِ الْقصّةِ مرّتْ بي صفحاتُها الّتي تعرَّفَ عليها إبراهيم بحذافيرها في لحظات!

أمّا القصّة (على حدّ قول إبراهيم): يمكن أنْ تتلخّص في "أنه اتّفقَ لشخصٍ اسمه محمد من سكّان ترهونة، أنْ يسافر إلى بني وليد لمهمةٍ له؛ فرافقه عديلُهُ أحمد، يريد أن يستغلّ هذه الفرصةَ فيتدرّب على القيادة أثناء الرّحلة. لأنّ الطريق الممتدّ بين المدينتين تتميّز بالخلوّ من المنعطفات والمرتفعات والزحام. فلمّا خرجا من ترهونة، أخلى كلٌّ منهما مكانَه للآخر. وبدأ أحمد يقود المركبة تحت رقابة صهره، فلم يستطع أن يتحكّم فيها مما أدىَّ ذلك إلى التشويش يمينًا وشمالاً؛ ولأنّ صاحب المركبة كان أحيانًا يتدخّلُ في القيادة لتقويم الاتجاه. فلمّا أحسّ بالخطر وهي تقترب منّا، خرج بها من الجادّة فأرساها في مزرعةٍ تفاديًا للاصطدام بسيارة قادمة من الجهة المعاكسة."

كانت هذه خلاصة القصّة الّتي استوعبها الفيلسوف بكلِّ دقائقها في لحظةٍ واحدةٍ وهو يجهل اللّغة العربية تمامًا؛ ولكنّه لم يتفرّغ منها عبر مسافةٍ تزيد عن ستين كيلاً، إلى أنْ أرسى السيارةَ أمام المقرِّ الرَّئِيسيِّ للشركة مقابل حديقة الظهرة بطرابلس!

لقد كان إبراهيم السائق الفيلسوف نموزجًا غريبًا بهذا الجانب من تصرّفاته وسلوكه. إلاّ أنه كان يمتاز بخصالٍ أخرى لم تتراءى في الوهلة الأولى. أتاحتْ لي الفرصة حتى لمستُ جانبًا آخر من شخصية هذا الرجل الّذي لم يكن يعبأ به أحدٌ "لأنه مهما بلغ، لم يعد أن يكون أكثر من سائق يخدم السّادة" في نظر أقرانه وزملائه. ولكنّي لمستُ فيه الكرم، والعرفان بالجميل، والإقرار بالحق، والذكاء الوقّاد،، والذوق السليم، والصحوة والوعي والمعرفة بدقائق الأمور في الوقت ذاته. هذه الواجهة من سلوكه وصفاته لم تكن ذات قيمة لدى العاملين. لأنّهم لم يتخلّصوا من قبضة الجهل والتبعية بعد. أمّا إبراهيم فانّه كان يعلم الشيءَ الكثير من أسرار "السّادة"، وأساليبهم في الاستغلال، وجمعهم من مال الحرام، وأنهم كيف يصلون إلى تحقيق أهدافهم من خلال شبكة المافيا، وكيف يشترون الأحزابَ السياسية بل الحكومات، وكيف يتمكّنون من توجيه الرأي العام وغسل الأدمغة بِاشتراء النفوس واستغلال الضمائر وبالدعايات عن طرق أجهزتهم الضخمة للأعلام.

سمعتُ بعد سنين أن الموت قد ابتلع إبراهيم وقد ترك في ذاكرتي صورةً نيّرةً عكست على هذه السطور. وأذكر من جملة ما ظلّ يطنُّ في أُذُني من كلامه أنه كان يقول: "كنتُ مدمن الخمر، فقد حظيتُ بالطهر من أنجاسه بعد أن أقمتُ في هذا البلد الطيب (يقصد ليبيا)، وعسى أن لا أعود إلى هذه المادّةِ النّجسة بعد عودتي إلى تركيا."

لقد كان إبراهيم مؤمنًا معترفًا بذنوبه، لا يباهي بفسقه كغالب الأتراك. اعترف أنه اشتكى يومًا من مغصٍ شديد في جوفه، فلم يتمكّن من تهدئة الألم على الرغم من كلّ محاولاته. قال: "بينما أتقلّب هكذا يمينًا وشمالاً، وأتحرّك قيامًا وركوعًا وقعودًا، وألجأ إلى كلّ وسيلة، لعلّي أتغلّب على شيءٍ من الوجع؛ غير أنّ كلّ محاولاتي ذهب سُدىً. فبدا لي أن أكبّ على وجهي. فلما وضعتُ جبيني على الأرض كهيئة السجود في الصلاة ذهب الألم مني في لمحة البصر!"

ثم أضاف يقول وهو يُقسم بالله العظيم: "أني كلّما رفعتُ رأسي عاد الألم بنفس الشدّة، وكلما عدتُ ساجدًا ذهب الألم تمامًا؛ فاضطررت أنْ أظلّ هكذا ساجدًا مدة أربعٍ وعشرين ساعة. ثم انتصبتُ وقد بارحني الألم. فظننتُ أنّ الله ربما استوفى مني حقّه من الصلوات الّتي فاتتني مدة عمري" فما أحلى هذه الكلمات حتى لو كانت أكذوبة...

لقد كان إبراهيم يستمع إلى تلاوة القرآن الكريم بخشوع ولا يفهمه كسائر الأتراك، ولكنّه لم يكره العرب مثلهم. فإني ما زلتُ أذكرُ هذه الروح الزكية لعلَّ اللهَ يتغمّده بغفرانه.

***

العقل الجامد

زرتُ ليبيا لمهمةٍ في أيام الحصار؛ وهي رحلتي قبل الأخيرة إلى ليبيا. ثم انتهيتُ من مهمّتي وعُدْتُ إلى (رأس أجدير: البوابة المعروفة على الحدود الليبية–التونسية)؛ فقدّمتُ جوازَ سفري إلى المختصّين لإجراءات الخروج. فقال لي الموظف:

– تفضل، لا مانع من الخروج، ولا حاجة لأيّ إجراءات.

قلتُ له:

– لعلّ ما تقول، إنما ينطبق على المسافرين العرب فحسب، دون غيرهم من بقية الجنسيات. أمّا أني تركيُّ الجنسيةِ، فأخشى إذا عُدْتُ إلى ليبيا أنْ أُمْنَعَ من الدخول لعدم ختم الخروج في جواز سفري.

فلمّا سمع الموظّف هذا الكلامَ منّي، أخذه الغضبُ وقال بعنفٍ:

– يا راجل! مخك مسكّر، هاهو تتكلّم بالعربي. والاّ كيف، تنكر أنّك مش عربي مسلم؟!!

فاضطررتُ أنْ أخرج من غير أن يُسَجَّلَ أدنى شيءٍ يدلُّ على أنّي غادرتُ أرض ليبيا.

هذا ولم يلبث بعد تلك الرحلة حتى عُدْتُ من اسطنبول إلى جربا قاصدًا ليبيا مرّةً أخرى، وينتابني شكوك أنْ تمنعني السلطات الليبية من الدخول. فلمّا وصلتُ إلى رأس أجدير وقدّمتُ جواز سفري إلى الموظفين لأجل إجراءات الدخول، فجئتُ بخيبة الأمل. لأنّ الموظف الّذي تناول جوازَ سفري هذه المرّةَ قال لي بالحرف الواحد.

– قل لي! كيف أنت طالع من ليبيا، ومافيش هني خروج؟!

فأخذتني الدهشةُ، واشتدّت الأزمة، ولم أجد من سوء الحظ في تلك اللحظات من يفهمني. فعُدْتُ إلى إسطنبول خائبًا على الرغم من وجود تأشيرة الدخول في جواز سفري. وإني مازلتُ حتى الآن أتعجّب كيف مُنِعْتُ ذلك اليوم من الدخول إلى أرض ليبيا وقد منحني المكتب الشعبي الليبي في إسطنبول تأشيرة الدخول؟!

لهذا اضطررتُ أن استبدل جواز سفري بنسخةٍ جديدة مع تأشيرة جديدةٍ، فتمكّنْتُ بعد ذلك من الدخول إلى ليبيا.

إنّي متأكّدٌ بأنّ هذه العقليةَ التافهةَ لا تمثّلُ فكرَ المجتمع النّاضج الّذي يفرض نفسَهُ اليومَ على مسرح التاريخ ليُنيرَ طريق البشريةِ. هذه العقليةُ البسيطةُ لا تمثّلُ إلاّ صاحبَها. ولذلك هي بمنزلة نقطةِ سوداءَ على ورقٍ أبيض. وإنْ كانتْ لابدّ أنْ تدلَّ على معنىً في نفسها،فإنّ كاتبَ هذه العُجالةِ أخذ منها العبرة الكبرى: أن لا يعبأَ بأيّ قيدٍ قد يفاجئُهُ من اليوم فصاعدًا ليمنعه من الدخول إلى وطنه (ليبيا) مهما كان. فإنّ هذه السطورَ لهي أقوى حجّةً من أيّ مادّةٍ من القانون، وإنّ هذا الكتاب لهو أبلغ معنىً من ألف جواز سفر ومن ألف تأشيرة!!!

أهواكِ يا ليبيا الحبية!

وَجْهِي يَمَّمْتُ إِلَيْكِ يَوْمَ أَهَانَنِي * وَطَنِي اتَّخَذْتُكِ قِبْلَةً لِمَذَاهِبِي
مَضَتِ الْمَشِيئَةُ أَنْ قَصَدْتُكِ لاَجِئاً* لَمَّا مَلَلْتُ عَشِيرَتِي وَاَقَارِبِي
أحَسَنْتِ مَثْوَايَ ارْتَضَيْتِ بِصُحْبَتِي* وَبَذَلْتِ لِي فَغَدَوْتِ أّكْرَمَ صاَحِبِي
ذُقْتُ الْهَنَاءَ وَعِشْتُهَا بِرِحَابِكِ * حَتَّى نَسِيتُ مَشَقَّتِي وَمَتَاعِبِي
يَا أُمِّي يَا لِيبْيَا الْحَبِيبَةَ يَا تُرَى *مَاخَطْبُكِ اشْتَبَهَتْ عَلَيْكِ مَنَاقِبِي؟!
أَوَ هَلْ نَقَضْتُ بِعَهْدِيَ خُنْتُ أَمَانَتِي* أَمْ كُنْتُ عاَقاًّ ماَ وَفَيْتُ بِوَاجِبِي؟
فَمَتَى نَهَضْتُ مُوَدِّعًا عَاهَدْتُكِ * لأَعُودُ لَوْ شَاءَ الإِْلَهُ فَرَاقِبِي!
إِنِي رَاَيْتُكِ فِي الْمَنَامِ حَزِينَةً * تَشْكِينَ مِنْ هَجْرِي وَقَسْوَةِ جَانِبِي
هَلْ تَعْلَمِينَ مَدىَ غَرَامِي وَحَسْرَتِي * وَمَدىَ اشْتِيَاقِي إِلىَ جِوَارِ حَبَائِبِي
فَأَعُودُ أَسْلُو عَنْ فُؤَادِيَ رَاجِيًا * وَمُناَجِياً فَعَسىَ أَناَل مَطاَلِبِي
لَهْفِي عَلَيَّ إِذَا لَقِيتُ مَنِيَّتِي * وَيَداَكِ لاَ تَمْتَدُّ نَحْوَ جَوَانِبِي
لِتَرُشَّ مِنْ عَبَرَاتِ عَيْنَيْكِ الْمَهاَ * قَطْراً عَلىَ قَبْرِي وَرُوحِي وَقاَلِبِي
تَبّاً لِمَوْتٍ يَطْلُبُ مُهْجَتِي فِي ساحةٍ* بَطَلَتْ حِماَكِ بِهاَ وَلسْتِ بِحاَجِبِي
وَإِذاَ دُفِنْتُ بِغَيْرِ دارِكِ مُبْعَدًا * فَلَعُمْرِيَ ذَكَ مِنْ أَشَدِّ مَصاَئِبِي
يَا دَارَ عِزِّي وَبَيْتَ أَمْنِي وَمَلْجَئِي * أَنَا مِنكِ لاَ مِنْ عَجَمٍ وَأَجاَنِبِ
أشْكُوُ إِلَيْكِ مَلاَلَةً مِنْ غُرْبَةٍ * نَفَدَ اصْطِبَارِي فَلاَ تَكوُنِي بِعَاتِبِي
أَفَمَا حَنَنْتِ عَلَيَّ مُذْ فَارَقْتُكِ * حَتىَّ غَدَتْ نَارُ الْفِرَاقِ بِلاَهِبِي!
أَهْوَاكِ يَا دَارَ الْحَمِيَّةِ وَالْحِمىَ * أهْوَاكِ أرْضَ مَشَاهِدٍ[1]وَمَوَاكِبِ



[1] صيغة منتهى الجموعِ غير منصرفٍ. وإنما أدخلتُ التّنوين على (مشاهدٍ) لضرورة الوزن وليس عن جهلٍ.

المحتويات

